البحث الثانى

علم النفس وعلاقته بالدعوة الإسلامية

« دراسة مقارنة »

أ.د. حسين محمد محمود عبد المطلب
عميد الكلية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي سيدنا ومولانا محمد وعلي آله وصحبه وسلم :

وبعد :

فإن لعلم النفس علاقة وثيقة ، وصلة قوية بالدعوة الإسلامية ، ذلك لأن كلا منهما يتحدث عن النفس الإنسانية ، ويبحث فيها من حيث نزعاتها الشهوانية ، وأهوائها النفسية وأوصافها المذمومة ، وعلاجها من هذه الأمراض ، حتي يتغير حالها ، وتتطبع بالمثل العليا ، والأخلاق الكريمة ، والصفات الحميدة .

ولن يتحقق ذلك إلا بالدعوة إلي ترك الصفات المذمومة ، والتمسك بمكارم الأخلاق ، والتنشئة علي محبة الفضائل ، والتبصر بطريق الله تبارك وتعالي ، والصبر علي الابتلاءات ، والرضا بقضاء الله وقدره ، وبهذا تتفوق النفس علي أنانيتها ، وتقوي علي شيطانها ، فلا تنزع إلي الشهوات ولا تميل إلي الأهواء والنزوات .

ومن ثم فإن دارس علم النفس ، إذا كان يريد حقا أن يتعرف علي حقيقة النفس البشرية ويسعي لأن يكون حكما سويا رشيدا علي الشخصية الإنسانية ، فعليه أن يتبع منهج الدعوة الإسلامية يستقي مادته من كتاب خالق النفس ومنشئها سبحانه وتعالي ، ومن سنة من خبر النفس الإنسانية سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم ، التي هي خلاصة كاملة لتجارب أعظم عقل فهم القرآن الكريم ، وآيات الكون وعلل النفوس ومشكلات الحياة وضروب الإصلاح .

وأيضاً فإن الداعية ينبغي أن يكون طبيبا اجتماعيا نفسانياً يدرس حالات النفس البشرية إذ إنها متفارتة الطبائع ، متباينة الاتجاهات ، والداعية لايستطيع مواجهتها والانتصار عليها والنجاح في دعوته ، إلا إذا كان دارسا لعلم النفس دراسة واعية ، قائمة علي أسس علمية سليمة مستقاة من المنهج الإسلامي ، فإنه بذلك يستطيع " أن يربي النفوس علي العادات الصالحة ، كالصبر عند الفاجعات ، والشكر عند النعم ، وتعويدهم علي الإيثار ، بدلا من الأثرة ، وترشيدهم إلي طريق مخالفة النفس ، حيث إن النفس لاتصدق ، ولاتشبع من مداومة الطلب ، كما يجب توجيههم إلي تحلية نفوسهم بالأوصاف المحمودة ، وتخليتها عن الأوصاف المذمومة "

ولاشك إن ذلك يساهم مساهمة إيجابية في علاج النفوس ، والقضاء علي التوتر واليأس اللذين إذا تركا دونما علاج فإنهما يسببان الانحراف ، أو يصيبان النفس بالعطب والتلف [1] .

وإنني في هذا البحث لا أتعرض للدعوة الإسلامية من حيث التعريف بها لغة واصطلاحا ولا عن مقوماتها ، وخصائصها ، وأساليبها ، ووسائلها ، لأني أعتقد – وذلك من وجهة نظري – أن ذلك قتل بحثاً .

ولكنني سوف أتناول جانبا من جوانب الدعوة الإسلامية وهو لصيق بها ، وفي حاجة ماسة إلي البحث والدرس وهو الجانب النفسي .

وأعتقد أن هذا الجانب يحتاج من رجالات الدعوة وعلماء الإسلام النظر فيه والاعتبار به ودراسته دراسة جادة لأن الداعية إن لم يكن دارسا لهذا العلم دراسة واعية فاحصة فإن دعوته – لاشك – سوف تبوء بالفشل الذريع .

وأيضا فإني لا أتعرض لعلم النفس من حيث ميادينه ومناهجه ، ومدارسه وغير ذلك من الدراسات النفسية العقيمة ، التي يقوم بدراستها الغرب ، ومن علي شاكلتهم ماعدا مدرسة فرويد التحليلية ، سوف أتحدث عنها بشيء من الإيجاز مع بيان موقف الإسلام منها ، وكذلك لانقصد في دراستنا لهذا العلم علم النفس القديم الذي كان جزءا من أجزاء الفلسفة ، وإنما نقصد علم النفس التجريبي لأن هذا العلم يفيد الدعاة في جوانب عديدة –

(١) د/ حسن محمد شرقاوي ، نحو علم نفس إسلامي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية عام ١٩٧٩م. صـ ٣٠ .

كما سنري بإذن الله تعالي – أعني بذلك علم النفس الديني ، أي الذي يبحث في النفس لا من حيث تكوينها الجسمي أو البيئي وإنما الذي يبحث في القيم والسلوك ، ذلك " لأن الاتجاه الديني أيضا نظام نفسي يتكون تدريجياً بتفاعل نزعات فطرية كامنة في أعماق نفس الإنسان مع عوامل البيئة المحيطة ويتطور إلي التكامل مع تطور الشخصية ونضجها ، وهذا الاتجاه يحتوي علي ثلاث نزعات أساسية للشخصية الإنسانية :

١ــ نزعة الإنسان إلي البحث والاستطلاع وفهم نظام الكون ، والتي تقوده إلي العلم والعلم سبيل إلي الله تعالي .

٢ــ نزعة الإنسان إلي التآلف مع الطبيعة والكائنات ، بحيث يتناغم وجدانه مع خصائص الكون ، فيرصد القيم الإنسانية الرفيعة ، ويجسدها في أعماله الفنية والأدبية والقيم الإنسانية سبيل إلي الله تعالي .

٣ــ نزعة الإنسان إلي أن يهب حبا ويتلقي حبا ، أن يفهم الآخرين ويتعاون معهم علي بناء المجتمع الإنساني ، الجدير بكرامة الإنسان ، وهذا التواصل الوجداني سبيل إلي الله تعالي[1] .

وقد رأيت إسهاما مني في عمل يخدم هذا الاتجاه ، ويجمع علي قدر الطاقة موضوعات حيوية وهامة لابد من معرفتها ودراستها دراسة جادة وواعية للمسلمين عامة ، وللدعاة خاصة ، ولكليات الدعوة وأقسامها في الجامعات الإسلامية المتنوعة بوجه أخص ، إصدار هذا البحث المتواضع ليكون إن شاء الله تعالي لبنة نافعة في مجال الدعوة الإسلامية الرحب وليستفيد منه إخواننا الدعاة ، في حياتهم العلمية والعملية ، وقد سميته : " علم النفس وعلاقته بالدعوة الإسلامية " دراسة مقارنة " .

الفصل الأول : الدعوة الإسلامية وما تهدف إليه .

الفصل الثاني : علم النفس وما يهدف إليه .

الفصل الثالث : الداعية بين الدعوة وعلم النفس .

الفصل الرابع: من أهم نظريات علم النفس الحديث ، نظرية الجنس " وموقف الإسلام منها.

---

(١) أ.د/ سمية أحمد فهمي – الأسس النفسية للاتجاه الديني – الجمعية المصرية للدراسات النفسية – الكتاب السنوي الثاني لعام ١٩٧٥م. ص ٢٨٠ – ٢٨١.

والله نسأل أن يتقبل منا هذا الجهد المتواضع بقبول حسن ، ويجعل نيتنا وأعمالنـــا كلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات والدي وأهل بيتي ، إنه نعم المولي ، ونعم النصير .

وصلي اللهم علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم ،،،،،

المبحث الأول
الدعوة الإسلامية وما تهدف إليه

تمهيد :

مما لاشك فيه أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية جاءت إلي الناس كافة ولم تأت لطائفة معينة أو لجنس خاص كما قال الله تعالي مخاطبا رسول الله صلي الله عليه وسلم { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرً }(١)

والدعوة الإسلامية دعوة عالمية تشمل الزمان والمكان منذ بزوغ فجرها إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها ....

"والدعوة الإسلامية ليست مجرد كلمات تردد ولا خطب تلهب المشاعر وأحاسيس الجمهور ، وإنما هي دعوة واقعية تبعث في أتباعها النشاط والحركة الدائبة نحو التغلغل الإيماني في القلوب والراحة في النفوس ، وتؤمن للناس ما تتطلع إليه نفوسهم ، وتتشوق إليه أفئدتهم وعقولهم من طمأنينة في النفس وراحة في البال .

والملاحظ أن العالم اليوم محروم من الطمأنينة النفسية وراحة البال ، وخلو القلب من المشاغل ولاشك أن طمأنينة النفس أحب إلي الناس من وفرة الخبز ، وراحة البال أعز عليه من ثياب الخز وخلو القلب من المشاغل أهم عنده من المركب الفاره ، والمسكن المريح، وذلك لأن النفس إذا لم تتوفر لها الطمأنينة لاتستلذ العيش ولو كان رخاء ، والبال إذا لم تتهيأ له الراحة لا يستمتع بملبس ولو كان فاخرا ، والقلب إذا ملأته الهموم والشواغل لا يهنأ بالمركب والمسكن ولو كانا طيبين فارهين .

---

(١) من سورة سبأ آية (٢٨) .

تلك هي طبيعة الإنسان العاقل ، إنه يبحث عن طمأنينة النفس ويعيش معها أني وجدها ولو بين الأكواخ ، ويريد راحة البال ويسعي إليها ولو صاحبها الفقر المدقع ويطلب خلو قلبه من الهموم والمشاغل ، ويبحث عنه ولو بين فتات الموائد وبقايا الأطعمة ".[1]

إن طمأنينة النفس نعمة لايحظي بها إلا من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلي الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، لأنه يؤمن إيمانا صادقا أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، قال تعالي " قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " [2] وقال تعالي :" وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .[3] وقال تعالي : " فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا [4] .

وحرمان الناس في هذه الأيام من هذه النعمة – نعمة طمأنينة النفس – نتيجة بعدهم عن منهج الله عز وجل ، وحرمانهم من الإيمان بالله عز وجل ، فالقصور الشامخة والمناصب العالية ، والثراء الواسع ، والتجارة الرابحة ، والمشاريع الناجحة ، كل هذه الأمور لم تستطع أن تهب للنفس طمأنيتها أو تجلب لها سعادتها .

يقول الدكتور / محمد السيد الوكيل : " إننا نشاهد الآن أن أرباب القصور ، والفرش والمناصب والجاه ، والمال والسلطان ، وأن أصحاب الزوجات الفاتنات ، والأولاد والخدم والعبيد ورجال الأعمال والمشاريع هم أكثر الناس قلقاً ، وأشدهم حيرة ، وإننا نسمع كل يوم عن انتحارات وحوادث يرتكبها هؤلاء المرموقون وليس الفقر والفشل هو الدافع إليها ، ولكن رغبتهم في التخلص من القلق والحيرة هو الدافع الحقيقي .

إنهم يشعرون أن السعادة التي يعيشونها زائفة فهي لاتتجاوز ألسنتهم إن كانت كلمة ، أو حلوقهم إن تمثلت في أكلة ، أو أجسادهم إن ظهرت في شكل ثوب أو مسكن أو موكب أو زوجة ، وهذا كله لايغني عن سعادة الروح ، وطمأنينة النفس شيئا، لأن هذه السعادة وتلك الطمأنينة لو توافرت فالإنسان تلازمه ولاتفارقه ، وماعداها فسعادة مؤقتة تذهب بذهاب مقتضيها .

---

(١) د/ محمد السيد الوكيل – أسس الدعوة وآداب الدعاة – الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ص ١٠٣ .

(٢) من سورة التوبة آية : ٥١.

(٣) من سورة التغابن آية : ١١ .

(٤) سورة الجن آية : ١٣ .

إن الإسلام أهدي إلي الناس السعادة الروحية ، والطمأنينة النفسية عن طريق الإيمان ومادام الناس محرومين من الإيمان فلن يهنئوا بسعادة قط ، إن الإيمان يثلج الصدر ويشيع في النفس السعادة ، ويجعل الإنسان مطمئنا لكل ما يترل به ولو كان في ظاهره شرا ، لأنه يوقن أنه مانزل إلا بقضاء الله وقدره ، وأنه وإن كان ضرا فقد دفع الله به ضرا أكبر منه وأفدح [1] .

هذا الإيمان يجعل الإنسان راضيا عن نفسه ، وتلك هي السعادة الحقيقية ، مطمئنا لمستقبله وتلك هي الطمأنينة التي تنشدها الدعوة الإسلامية وتهدف إلي تحقيقها لأتباعها .

ومن المعلوم أن الدعوة الإسلامية تستقي مادتها – كما أشرت – من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسول الله – صلي الله عليه وسلم .

والناظر في كتاب الله عزو جل يجد أنه " جمع بين دفتيه منهجا كاملا للحياة الإنسانية ، ودستورا قويما "[2] يهدي النفوس الضالة إلي أهدي طريق وأقوم سبيل قال تعالي : " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا " [3] .

فالقرآن – كما يقول الدكتور / محمد أبو شهبة – رحمه الله تعالي – هو هداية الخالق لإصلاح الخلق وشريعة السماء لأهل الأرض ، وهو التشريع العام الخالد ، الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم "[4] .

وقد أنزل الله تعالي هذا الكتاب الحكيم لمقاصد خمس :

الأول : التوحيد وهو أهم ما جاء لأجله الدين الحنيف ، فإن الناس يومئذ كانوا في ظلمات الشرك والوثنية ولقد جاء في القرآن الحكيم ، من آيات التوحيد ومقارعة المشركين ، ما يكفي لاقتلاع جذور الوثنية والشرك ، وهدم منارة الإلحاد في أي أمة وفي أي زمان ... ويتلو علي السامعين شيئا من تلك الآيات التي قضت علي الوثنية التي كانت فاشية في تلك الأمم وفتحت أمام العقول أبواب النظر في الكائنات لتهتدي إلي أن لها صانعا حكيما قادرا عليها ، كقول الله تعالي " الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٣.

(٢) أ.د/ حسن عبد الحميد عويضه – النظم الإسلامية والمذاهب المعاصره – مطبعة الأمانة الطبعة الأولي ١٣٩٩هـ ص ١٨

(٣) من سورة الإسراء آية ٩ .

(٤) المدخل إلي علوم القرآن ط / دار الطباعة المحمدية عام ١٩٧١.م ص ٨ .

الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"[١] .

وكقوله تعالي " اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[٢]

الثاني : وعد الطائعين الحافظين لحدود الله بجميل الجزاء وتبشيرهم بحسن المثوبة ووعيد المخالفين الذين تعدوا حدود الله تعالي ، وانذراهم بشديد العقاب وسوء العاقبة ترغيبا وترهيبا .

الثالث : العبادة التي تجلو القلوب وتهذب النفوس ، وتنمي فيها شجرة الإيمان ، وتقوي فيها روح التوحيد ، ويتلو شيئا من آيات العبادة والإخلاص فيها ، كقوله تعالي :" وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ "[٣]

الرابع : مكارم الأخلاق وحسن المعاملة مع الله والناس أجمعين ، وكيفية السير فيها وكل ما يكفل صلاح المجتمع الإنساني ، ويوصل الناس إلي خيري الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتعاليم ويتلو عليهم ما في ذلك من الآيات .

الخامس : العظة والاعتبار ، والنظر في الشئون العامة التي كانت عليها الأمم الماضية لاختيار سبل المحسنين ومعرفة سنن الله في خلقه ، بقصص من وقف عند حدود الله تعالي وخضع لأحكام دينية ، وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه وراء ظهورهم ويتلو عليهم شيئا من أخبار الأولين .

---

(١) من سورة الأعراف الآيات : ١٩١-١٩٥.

(٢) من سورة الرعد الآيات : ٢-٤.

(٣) من سورة البينة الآية : ٥ .

هذه هي المقاصد التي اشتمل عليها القرآن الكريم وفيه حياة الناس وسعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة [١] .

المطلب الأول : النفس في القرآن الكريم :

ورد ذكر النفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة:

فقوة الدوافع الغريزية تقابل النفس " الأمارة بالسوء " { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }[٢] .

وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا }[٣]

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهي النفس التي يقع منها الحساب كما يقع عليها ، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة { لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ }[٤] .

ثم ذكرت موصوفة بالإبصار والعلم بمواقع الأعذار { بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ }[٥] .

وقوة الإيمان بالغيب تقابل النفس المطمئنة { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً }[٦] .

وفي كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الإنسانية بعامة هذه القوي ..... فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الإنسان في القرآن وهما خاصة الكائن المكلف المسئول .[٧] { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ }[٨] ، { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا }[٩]، { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا}[١٠].

---

(١) هداية المرشدين ص ٢٧٥-٢٧٧.

(٢) من سورة يوسف آية : ٥٣.

(٣) من سورة الشمس الآيات ٧ : ١٠ .

(٤) من سورة القيامة الآيات ١ : ٢ .

(٥) من سورة القيامة آية : ١٤ .

(٦) من سورة الفجر آية : ٢٧ .

(٧) عباس محمود العقاد – الإنسان في القرآن الكريم – دار الهلال عام ١٩٧١م. ص ٣٢.

(٨) من سورة المدثر آية : ٣٨.

(٩) من سورة الأنبياء آية : ٤٧.

(١٠) من سورة آل عمران آية : ٣٠.

يقول الأستاذ / عباس محمود العقاد : " ولعلنا نفقه من هدي القرآن ترتيب هذه القوي في الذات السامية ، وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتمييز الإنسان بمنزلة الكائن المسئول .

فالإنسان يعلو عن نفسه بعقله ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله .. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لايدرك الحقيقة من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام "[1]

وهكذا فإن النفس في القرآن الكريم تدل علي الذات بمجموعها مشيرة إلي عنصر النشاط الحيوي أكثر من دلالتها علي المعني الواعي أو المفكر فيه فهي لفظ عام يشمل الإنسان كله ولايختص بالدلالة علي القلب أو الروح أو العقل أو التفكير أو الفهم .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الأنفس منها :

أ_ نفوس مؤمنة مهذبة :

وهي النفوس التي تتقبل النصيحة وتؤمن بكل ماجاء في القرآن الكريم من الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة ، والإنفاق في سبيل الله تعالي ، والإيمان بكل الكتب السماوية السابقة وبالقرآن الكريم واليوم الآخر ، فكانوا حقا علي هدي من ربهم ، واستحقوا الفلاح والنجاح وصدق الله العظيم إذ قال فيهم : " أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "[2] وعندما نلقي نظرة علي مجموعة الأوصاف التي تؤلف فيما بينها حقيقة النفوس المتفتحة نري كل ذي صفة منها تبني ركنا من أركان هذه النفوس بحيث يتكون منها في النهاية هيكل متكامل لحقيقة النفوس المتفتحة ، وأول ركن هو التقوي ، والتقوي في أبسط معانيها إنها ضبط طريق الشرع وانسجام مع الكتاب والسنة ، والتزام بفضائل الأخلاق والسلوك وهي بهذه المثابة :

خط الدفاع الأول والحصن الحصين ضد شهوات النفس ونزواتها ، ولها درجات أدناها إيمان الله عز وجل لايخلو من وساوس النفس الأمارة ، ثم تترقي وتتصاعد إلي منزلة أعلي وهي النفس اللوامة قد ترقي إلي درجة أرفع وهي النفس المطمئنة ، وما تزال ترقي النفس المطمئنة صعوداً في سلم الوصول حتي ترشح صاحبها لمنازل رفيعة ومقامات عليها .

(١) المرجع السابق ص ٣٣.

(٢) من سورة البقرة آية : ٥ .

ومن ثم فإن درجات الإيمان في هذه النفوس تتفاوت بين أعلي وأدني وبين هـاتين الدرجتين تتوزع مراتب النفوس البشرية ، وطريق النجاة والخلاص هو المجاهـدة المحتـسبة الصابرة لشهوات ونزوات النفس الأمارة .

ب ـ نفوس ضالة مغلقة :

وهذا النوع من النفوس المريضة الهزيلة محدود الأفق ، فلا يستجيب لنداء العقل ، ولا يتعاطف مع المنطق الرشيد ولايجدي فيه نصح ووعظ وإرشاد ، ذلك لأن حسه قد تبلد ، ومشاعرة قد تجمدت ، وهذا النوع موجود في كل عصر وفي كل جيل ، وعلي الداعية أن يفهم نفسيات هؤلاء ، وبالتالي فلا يجد نفسه معهم لأنه إن قال لهم افعلوا كذا قالوا سنفعل كذا ، وقد صور القرآن الكريم نوعا من هذا الطراز وهم المنافقون فمن ذلك قول الله عزو جل " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَـادِعُونَ اللَّـهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَـزَادَهُمُ اللَّـهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُـمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُـمُ الـسُّفَهَاءُ وَلَكِـنْ لَـا يَعْلَمُونَ"[١] .

ولقد وضح لنا القرآن الكريم أيضاً أن " مفتاح معرفة الله تعالي هو معرفة النفس " [٢] كما قال سبحانه وتعالي " سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ " [٣] وقال الله تعالي " وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ "[٤] .

وروي عن النبي صلي الله عليه وسلم – " من عرف نفسه فقد عرف ربـه " [٥]، وقال عليه السلام " أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه "[٦] .

وقال كان في كتب الله المنزلة " اعرف نفسك ياإنسان تعرف ربـك " [٧]حجـة الإسلام أبو حامد الغزالي :" فمن عرف نفسه فقد عرف ربه وعرف صفاته وأفعاله ، وعرف

(١) من سورة البقرة آية : ٨–١٣.
(٢) أبو حامد الغزالي – المنقذ من الضلال – مكتبة الجندي ص ١٠٨.
(٣) من سورة فصلت أية : ٥٣ .
(٤) من سورة الذاريات آية : ٢١.
(٥) يحكي أن هذا ليس بحديث وإنما هو من قول يحي بن معاذ الرازي – انظر ص ١١ – معارج القدس في مدراج معرفة النفس لحجة الاسلام الغزالي .
(٦) الماوردي أدب الدين والدنيا .
(٧) ميزان العمل لأبي حامد الغزالي صـ ٢٧ .

مراتب العالم مبدعاته ومكوناته ، وعرف الملائكة ومراتبهم وعرف لمة الملك ولمة الشيطان والتوفيق والخذلان ، وعرف الرسالة والنبوة وكيفية الوحي وكيفية المعجزات والأخبار عن المغيبات ، وعرف الرسالة والنبوة وكيفية الوحي وكيفية المعجزات والأخبار عن المغيبات ، وعرف الدار الآخرة وسعادتها وشقاوتها وأقسامها ولذة البهجة فيها ، وعرف غاية السعادة التي هي لقاء الله تعالي "[1] .

المطلب الثاني : معرفة النفس مهمة في حياة الدعاة :

فإذن معرفة النفس أمر لا بد منه لكل داعية يعرف ربه ويراقبه في سره وعلنه وليس معرفة النفس قاصرة علي الجسد أو علي القلب ونبضاته ، أو علي وظائف الأعضاء فقط ، بل بالغوص في أعماقها ، لأن النفس البشرية عالم عجيب ، يتغير في كل لحظة مثل حديقة تتغير ألوانها وأشكالها وطرقاتها ، فمن يدخلها أول مرة لا يعرف طريقه إلي الخروج منها نظراً لتغيير ألوانها وأشكلها تغيراً مستمراً دائما ، فكيف يمكن للباحث سبر غور هذه النفس ، وتشريحها إلي شرائح ، وتفتيتها إلي أجزاء .... لذلك لايمكن دراسة النفس إلا في تمثلها بالمعايير الخلقية وارتباطها بالعقيدة الدينية ، ومن ثم فإنه يتطلب من عالم النفس أن يكون أخلاقيا بالضرورة ظاهرا وباطنا ، فكرا وعملا ، ليتعرف علي الوسط العدل الواجب أتباعه والخير الفاضل التي تتصف به النفس المتكاملة ، حين تكتمل لديه المعايير السليمة والموازين الدقيقة ، وبذلك يمكنه أن يصف بصدق حال النفس عند التشخيص والعلاج [2] وهذا هو نفس منهج الدعوة الإسلامية في تربيتها وتهذيبها للنفس الإنسانية .

وتتركز هذه التربية في " تعويد النفس علي تجنب الحظوظ والأهواء ، والبعد عن الرغبات الدنيئة ، ومخالفة الشهوات الدنيوية الرخيصة ، ورفض ما هو ملذ زائل ، والإقبال علي ما هو خالد باق ، عند ذلك ترضي النفس بحالها وأحوالها ، وتواكب طريق الله مسترسلة معه أبدا لاتستهدف إلا محبته وقربته تعالي.

بهذا السلوك المستقيم تتوافق النفس مع ذاتها ، كما تتوافق مع الآخرين ، وتنسجم انسجاما كليا في معاملاتها بالغير ، وتسلك سلوكا إيجابيا مع الناس جميعا وهنا يستحق صاحبها أن يسمي شخصية سوية ، ومتوازنة ، ومتكاملة "[3] إيجابية في سلوكها .. وصاحب هذه النفس السوية المتوازنة يكون رائده دائما ، الهدي النبوي الكريم

---

(١) معارج القدس ص ١١ ، ١٢ .

(٢) د/ حسن محمد الشرقاوي – نحو علم نفس اسلامي ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٣) المرجع السابق ص ٤٣.

في كل سلوكه واتجاهاته ورغباته ، لأن رسول الله صلي الله عليه وسلم هو المثل الأعلـــي في الأسوة به والقدوة ....

قال تعالي :" لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا " [1] وقال تعالي : " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " وهو بانتهاجه الهدي النبوي يكون مأمون الجانب ، موطأ الأكناف ، يألف الناس ويألفـــه الناس لايظلم ولايغدر ، ولايؤذي أحداً ولا يحقد ولايسلب عرضا ولايهجر ولايخشي في الله لومة لائم ، يقول الحق ولو كان مرا ، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وبذلك يصبح المؤمن الحق الكامل الإيمان .

المطالب الثالث : أثر الدعوة الإسلامية في تهذيب النفوس

إن الدين الإسلامي قد اختص من بين سائر الأديان بأنه أكملها معـــني ، وأجملـــها صورة ، وأوضحها بيانا ، وأقواها حجة وبرهانا ، وأوفاها بمصالح البشر الدنيوية والأخروية بل هو الصراط السوي والمنهج القويم ، من سلكه فقد اهتدي ومن انحرف عنه ضل وغوي " قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّـــهِ وَمَـــا أَنَـــا مِـــنَ الْمُشْرِكِينَ"[2] .

فالإسلام إذن جاء – كما أشرت – لإصلاح النفوس البشرية وتهذيبها ، حيـــث يضع يده علي حقيقة الإنسان واتجاهاته وسلوكه ، فيصف جبلات النفس ويحللـــها تحلـــيلا شاملا عميقا ، وواعيا ، فيبين أن الإنسان المؤمن الواثق بربه لايصاب بالأمراض النفسية ، ولقد سمعت من أحد أساتذي وهو الأستاذ الدكتور / محمد عبد الغني شامة ذات يـــوم أن المشتغلين بدراسة علم النفس توصلوا إلي أن قاريء القرآن الكريم أقل الناس إصابه بمـــرض السرطان وكذلك الذين يذكرون الله تعالي : " لأن هؤلاء في أثناء قراءتهم للقرآن الكـــريم وذكرهم لله فاطمأنت نفوسهم وصدق الله العظيم إذ يقول : {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }" [3] .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

(٢) سورة يوسف أية : ١٠٨.

(٣) من سورة الرعد آية : ٢٨ .

إذن :

الأمراض النفسية لا علاج لها بالعقاقير والماديات ، كما يقول فضيلة الأمام الأكبر شيخ الأزهر جاد الحق علي جاد الحق – لكن بالاتجاه إلي العلاج الإلهي المتمثل في التمسك بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج والاستعانة بما شرع الله تعالي [١] .

وقال أيضا فضيلة شيخ الأزهر في الاحتفال باليوم العالمي الأول للصحة النفسية الذي ينظمه الاتحاد العلمي والجمعية المصرية للصحة النفسية برئاسة الدكتور / جمال محمد أبو العزائم :" إن جامعة الأزهر تتولي الصحة الجسدية والنفسية معا ، وأن الإسلام أوضح صفات النفس المطمئنة التي خلت من الشوائب والغوامض واتجه إلي البعد عن القلق النفسي بالعلاج الإلهي " [٢] .

ويقول الشيخ : علي محفوظ – رحمه الله تعالي : " الوعظ والإرشاد هو العلاج الوحيد لصلاح العالم ، والدين الحنيف هو الدواء المفيد لشفاء القلوب من أمراضها ، ولا سلامة للعالم من مخاطر الشفاء إلا به ، ولا ريب أنه إذا ترك علاج القلوب من هذه الأمراض استفحل أمرها ، متي أهمل تطهير النفوس من أدران النقائص والرذائل عظم خطرها وانتشر الفساد وهلك العباد ، وزاد البلاء وساء حال المجتمع الإنساني [٣] .

ومن ثم فإن الدعوة الإسلامية حقيقة تعتبر صمام الأمان للنفس البشرية ، إذ كل إنسان في حياته معرض لهزات المسرة والمضرة ، والمؤمن الحق يستقبل ما تقدمه الأيام استقبال الواثق بأن كل شيء من عند الله تبارك وتعالي – فتحفظ له هذه الثقة توازنه النفسي يجلي هذه الحقيقة ويوضحها قول الرسول – صلي الله عليه وسلم : " عجباً للمؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له "[٤] .

فالمسلم في حرز بعقيدته يستطيع بها أن يتكيف مع الأحداث خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ويجد في هذا التكيف سكينة النفس ، واطمئنان القلب أما غير المسلم فلا يستطيع ذلك لأنه يفقد الملاذ والمعاذ .

---

(١) جريدة الأهرام يوم الأحد الموافق : ١٩٩٢/١٠/١١م. ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصحيفة .

(٣) هداية المرشدين ص ٧٤.

(٤) رواه مسلم .

والدعوة الإسلامية من قبل ذلك ، ومن بعد تحكم سلوك المسلم فلا يأخذ ولايدع إلا ما يرضي خالقه ومولاه عز وجل ، فهي موجه ذاتي يعمل داخل الإنسان ، لايمكن أن تقوم مقامه تشريعات وضعية أو فلسفات بشرية ، لأن الوازع الخارجي أقل الوازعات شأنا وأضعفها أثراً فهو ضعيف في مصدره ، وضعيف في عمله ، وضعيف في أثره ، وكذلك كل رقابة غير رقابة الله عز وجل ومهما أوغلنا في الفلسفة ، وتعمقنا في اصطناع العديد من ألوانها .

فإذا آمن الإنسان بعقيدة الإسلام إيمانا صحيحا خالصا تفتحت أمام عقله وقلبه الآفاق الرحاب واعتدلت نفسه واستقام سلوكه وتلك هي وظيفة الدعوة الإسلامية ومنهجها في هذه الحياة .

المطلب الرابع: العبادات الإسلامية وأثرها علي النفس البشرية

وحتي تظل النفس البشرية علي المستوي المرضي من الاتزان والاعتدال مع ذاتها ومع غيرها فرض الإسلام ألوانا من العبادات بها تبقي العقيدة حية ، ويبقي الاتزان النفسي متجددا في كيان الإنسان ، فلا تلتوي به السبل ، ولاتتوزع نفسه علي مختلف المسالك بل ينبعث سلوكه في شتي جوانب التعامل وفق المنهج المرضي الذي شرعه الله في كتابه وسنة نبيه محمد صلي الله عليه وسلم .

والعبادات الإسلامية علي تنوعها في اتجاهاتها تدور حول هذا المحور ، وتتكفل له بالتنبيه الدائم والتذكير المستمر .

والعبادات في الإسلام ليست مقصودة لذاتها ، صحيح أن الله تعالي يقول " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " [1] ولكن الله تعالي غني عن عبادة العابدين وتسبيح المسبحين " وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ " [2] فهو لا يفرض عليهم العبادة لأنه في حاجة إليها سبحانه وتعالي عن ذلك علوا كبيراً ... وإنما يفرضها لأنها تعينهم علي الخير وعلي تحقيق أهداف الإنسانية العليا ، حين تطهر أرواحهم وتهذب نفوسهم وتصل قلوبهم بخالقهم سبحانه وتعالي .

إن المسلم يستقبل نهاره ويتوسطه ويستقبل الليل بالوقوف بين يدي الله عز وجل يستهديه في عمله ، ويستلهمه الرشد فيما يأتي وفيما يدع ، خمس مرات في اليوم والليلة ، يناجي فيها خالقه ، ويربط به أسبابه ، وحري بهذه الوقفات أن تحول بين المسلم وما يغضب

(١) من سورة الذاريات آية : ٥٦ .
(٢) من سورة العنكبوت آية : ٦ .

الله فلا انحصار في ربقة الذاتية ، ولا انفلات علي إغراء شهوة أو إشباع نزوة ، بل يستملي المسلم علي كل تلك النقائض ، يفيض الخير من ينبوع ضميره ، ويستحذي الهوي والشيطان، أمام قوة يقينه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : " إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ " (١) .

١ــ فالصلاة اتصال مستمر بالله تعالي يعصم المسلم من التردي في مهاوي الرذيلة وتطهير للنفس من الفحشاء أو ماعونتها علي التطهر بالتذكير الدائم بصلة المخلوق بخالقه .

٢ــ والصوم تجنيد للنفس وتربية للإرادة علي المقاومة والصمود ، وفيه تدريب علي ضبط النفس وتفوق دوافع النفس في مغالبة الشهوة والانتصار قال تعالي : " كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (٢) .

ويوضح لنا النبي صلي الله عليه وسلم – المنهج الأصيل للصوم فيقول : " الصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني صائم إني صائم " (٣) .

٣ــ والزكاة ضبط لشهوة المال ، وتطهير للنفس من رذيلة الشح ، وتوسيع لأفق المشاعر عن الدائرة الذاتية الضيقة إلي الإنسانية في ميدانها الواسع الفسيح .

والزكاة التي فرضها الإسلام علي المستطيعين في أموالهم ليست مجرد حل من الحلول لمشكلة الفقر والتخفيف من ضغوطه الاجتماعية ولكنه مع ذلك علاج عملي بعيد الغاية لضعف النفس وتحصينها من أدواء الشح والأثرة وعبادة المال ومن ثم اعتبر القرآن الكريم بذلك المال تطهيرا أو تزكية فقال " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ " (٤) .

٤ــ والحج – من استطاع إليه سبيلا – له أثره الساحر في تطهير النفس وتهذيبها ، لأن – المثول بين يدي الله عز وجل – في بيته المكرم والقرب من مقام رسول الله – صلي الله عليه وسلم – يجعل النفس في اطمئنان وروحانية ، وآفاق مشرقة رحيمة .

(١) سورة العنكبوت من الآية :٤٥.
(٢) من سورة البقرة آية : ١٨٣.
(٣) رواه البخاري .
(٤) من سورة التوبة آية : ١٠٣ .

هذه هي عبادة الإسلام نري من خلالها أنها جاءت لتقويم النفس وتهذيبها ومساعدتها علي عمل الخير لذا يقول الأستاذ : عباس محمود العقاد : " علي أن عبادات الإسلام قد امتازت بميزة لانظير لها ، فالعبادات الإسلامية كلها تكليف لضمير الإنسان وحده ، لايتوقف علي توسيط هيكل أو تقرب كهانة ، يصلي المسلم حيث أدركه موعد الصلاة ويصوم ويفطر في داره أو موطن عمله ويحج ويذهب إلي بيت الله لاسلطان فيه لأصحاب سدانة ولاحق عنده لأحد في قربان غير حق المساكين والمعوزين ، ويذهب إلي صلاة الجماعة فلا تتقيد صلاته الجامعة بمراسيم كهانة أو إتاوة محراب ، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفا عندهم من قبل ذلك .... إنه الدين الذي نتعلم منه أن الإنسان مخلوق مكلف تقوم عبادته علي رعاية حق الضمير " [1] وتطهير النفس وتهذيبها من أدران النقائض والرذائل ، والتحلي بالفضائل ومكارم الأخلاق ، هذا وناهيك علي أن الدعوة الإسلامية قد هذبت النفس وعالجتها مما لحقها من العلل والأمراض النفسية كالحقد والغضب والحسد والرياء والكبر والغرور وغير ذلك من الآفات والعلل التي تصيبها ، حيث وضعت لها العلاج الناجح والدواء الشافي ، وهو الرجوع إلي كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – والعمل بهما ، وصدق رسول الله صلي الله عليه وسلم إذ يقول : " تركت فيكم ما إن تمسكتم لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي "[2] .

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١١٢ .
(٢) أخرجه الترمذي .

المبحث الثاني
علم النفس وما يهدف إليه

تمهيد :

إن علم النفس من أهم العلوم الإنسانية التي يجب علي الدعاة أن يكونوا علي بصيرة منه ولقد " كان صحابة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – علي حظ عظيم من هذا العلم ، فإنهم كانوا بسلامة فطرتهم وذكاء قريحتهم ، وبما هداهم القرآن الكريم بآياته ، والرسول الكريم ببيانه وسيرته علي بصيرة من علم النفس ، وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية، فقد كان علمهم به كعلم الواضعين له أو أرسخ ، يدل هذا ما يؤثر عنهم من الحكم، وما نجحوا به في الدعوة وظهروا به في مواطن الحجة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء "[1] ومن ثم فإن هذا العلم لا بد للدعاة من ولوجه والتعرف عليه لأن أي إنسان محتاج إلي التعرف علي الأضرار الناجمة عن الآفات النفسية التي يمكن أن يصاب بها ، وعليه أن يتخذ الاحتياطيات اللازمة للوقاية منها والتحصن ضدها حتي يسلم من الوقوع فيها ، ومن باب أولي فإنه ينبغي علي الدعاة أن يدرسوا هذا العلم دراسة وافية وواعية حتي يستطيعوا أن يربوا النفوس علي العادات الصالحة والعبادات الصحيحة .

وفي هذا الفصل سوف نتحدث عن علم النفس من حيث تعريفه ، ومدي استفادة الدعاة منه ثم بعد ذلك نتحدث عن علاقة هذا العلم بالدعوة الإسلامية .

---

(١) هداية المرشدين ص ١٠١.

المطلب الأول : تعريف علم النفس :

أما عن تعريف علم النفس ، فإنه مما لاريب فيه أن تعريف أي علم من العلوم وبخاصة إذا كان من العلوم الإنسانية كعلم النفس – الذي نحن بصدده – يعتبر شائكا إلي حد بعيد بحيث يكاد يستحيل علي القائم به أن ينجح في وضع التعريف المثالي ذلك لأن هذا العلم بمفهومه الحديث وبمدارسه المختلفة لم يصل ولا نظنه سيصل بمناهجه العلمية والموضوعية إلي نظرية صالحة لتفسير السلوك الإنساني ، إذ أنه من المستبعد عن طريق استخدام هذه المناهج إصدار أحكام تقريرية عن الشخصية الإنسانية ، فما زال علم النفس إلي الآن وليدا لم يشب عن الطوق ، كما أنه يعتمد علي اتجاهات بعض العلماء الذين لم يلبث غيرهم ، أن يقيموا الأدلة علي تهافت حججهم وضعف مناهجهم ، وضآلة تفكيرهم ، وإذ بهم يهدمون هذه النظريات ويدحضون تلك الآراء ويدللون علي فسادها وكذب نتائجها تجريبياومعمليا ...[1] .

والواقع أن علماء علم النفس وضعوا مئات التعريفات للشخصية الإنسانية إلا أنهم – للأسف – لم يتوصلوا إلي تعريف يكون واضحاً وشافياً .

ومن أجل هذا تشعب هذا العلم إلي شعب وتفرع إلي فروع فمن هذا علي سبيل المثال:

١– علم النفس العام :

وهو مدخل لكل العلوم النفسية ، ويهتم بدراسة المباديء والقوانين العامة لسوك الإنسان السوي ، مستهدفا صياغة المباديء الأساسية للسلوك "[2] .

٢– علم النفس التطبيقي :

وهو علم يقوم بتطبيق الحقائق والقوانين والمباديء – التي كشف عنها علم النفس العام – علي جميع أوجه النشاط المختلفة ، وقد طبقت مباديء علم النفس في الصناعة والتجارة والتربية والطب والجيش إلي غير ذلك ، من جميع أوجه النشاط الإنساني "[3] .

---

(١) انظر هـ . ج ايزنك – الحقيقة والوهم في علم النفس ص ١٣–١٨ ترجمة قدري حفني وروؤف نظمي بأشراف د/ يوسف مراد .

(٢) د/ عبد الله عبد الحي موسي – علم النفس التربوي – دار الثقافة للطباعة والنشر عام ١٩٨١م. ص١٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١١ ، ١٢.

٣- علم النفس الفسيولجي :

هذا العلم يقوم بدراسة السلوك المترتب علي وظائف أعضاء الجسم ومن الموضوعات التي يدرسها هذا العلم : الجهاز العصبي ووظائفه المختلفة ، والغدد الصماء والغير صماء وكيفية تأثيرها علي السلوك .

٤ـ علم النفس التربوي :

وهو الدراسة العلمية للسلوك الإنساني الذي يصدر خلال العمليات التربوية [١] وكذلك علم النفس الصناعي والتجاري والحربي والجنائي والطبي وغير ذلك من الميادين المختلفة لهذا العلم .....

ومن الممكن أن نستخلص من هذا كله تعريفا موجزا لهذا العلم ، وهو أن علم النفس : هو الذي يدرس كافة أنواع النشاط الصادرة عن الإنسان من خلال حياته كلها منذ بدء تكوينه قبل ميلاده ، وفي طفولته ، ومراهقته ، واكتمال نضجه ، وحتي تنتهي به الحياة .

إذن

علم النفس – في حقيقة أمره وبخاصة الجانب الإنساني – يهدف إلي دراسة سلوك الإنسان لتقويمه وتهذيبه وهو ما تهدف إليه الدعوة الإسلامية .

وإننا في دراستنا لهذا العلم لانريد به علم النفس القديم الذي قبل انفصاله كان جزءا من أجزاء الفلسفة وإنما أريد علم النفس التجريبي الذي انتهت إليه الدراسات النفسية الحديثة واطمأنت إليه ، يعتمد علي التجربة والاختبار والرياضيات والأرقام ، لا علي مجرد الظن والتخمين ، ولأن علم النفس بهذا المفهوم كما يقول الدكتور / يوسف القرضاوي – يفيد الداعية في أكثر من جانب .

أولاً: إنه يفيد في بيان الآثار الطيبة ، والثمار النافعة للإيمان والتدين في نفسية صاحبه وسلوكه في الحياة .

تجد ذلك واضحا في مثل ما سجله الطبيب النفسي الأمريكي المشهور – الدكتور / هنري لنك – في كتابه " العودة إلي الإيمان " وقد طبع كتابه إلي ماقبل سنوات ٤٧ مرة في أمريكا – وقد أجري أكثر من ثلاثة وسبعين ألف (٧٣٠٠٠) اختبار نفسي علي عشرة آلاف نفس ، خرج منها بنتيجة هامة هي : " إن كل من يعتنق دينا ، أو يتردد علي دار العبادة ، وتمتع بشخصية أقوي وأفضل ممن لادين له ، ولايزاول آية عبادة ".

(١) د/ فؤاد أبو حطب – د / أمال صادق – علم النفس التربوي – مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٧٦م.

ومثل هذا ما قرره الدكتور / كارل يونج – في كتابه " الرجل العصري يبحث عن روح " أنه لم يجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر ، لاترجع في أساسها إلي افتقاد الإيمان ، والخروج علي تعاليم الدين ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضي إلا حين استعاد إيمانه بأوامر الدين ونواهيه ، علي مواجهة الحياة .

ويكفي هذا ردا علي الذين يزعمون أن الدين أفيون مخدر للشخصية الإنسانية ..... ويقول الفيلسوف الأمريكي الشهير " وليم جيمس " إن أعظم علاج للقلق – ولاشك – هو الإيمان ".

وينقل " ديل كارنيجي " عن الدكتور / أ . أ . بريل " قوله " إن المرء المتدين حقا لايعاني مرضا نفسيا قط " .

ويعقب علي ذلك " كارنيجي " بقول : " وعندي أن أطباء النفس ليسوا إلا وعاظا من نوع جديد ، فهم لا يحضوننا علي الاستمساك بالدين ، توقيا لعذاب الجحيم في الدار الآخرة فحسب ، وإنما يوصوننا بالدين توقيا للجحيم المنصوب في هذه الدنيا جحيم قرحات المعدة ، والانهيار العصبي ، والجنون "[1] .

ثانيا : إنه يفيد في فهم كثير من النصوص الدينية ، والتعبير عنها تعبيرا يلائم عقلية العصر وروحه فقوله تعالي : قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا "[2] يدلنا علي أن التفكير النافع الجدير بأن يوصل صاحبه إلي الحق هو تفكير الإنسان مع رفيق له أو وحده – بعيدا عن تأثيرات العقل الجمعي وإيماءاته التي كثيرا ما تجرف الإنسان عن الصواب والاتزان – وهذا مايقرره علم النفس [3] .

وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم – " لايقضي القاضي وهو غضبان " [4] يشير إلي تأثير الانفعال – وخصوصا إذا اشتد – علي سلامة الإدراك وصحة التفكير ، وهذا ما يقرره علم النفس .

---

(١) د/ يوسف القرضاوي – الأيمان والحياة .

(٢) من سورة سبأ آية : ٤٦ .

(٣) د/ يوسف القرضاوي – ثقافة الداعية – مكتبة وهبه – الطبعة الثامنة عام ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م. ص ١٠٧

(٤) رواه البخاري .

ثالثا : إنه يزيد الداعية فهما لأسرار كثيرة من الأحكام الشرعية – فيزدادا إيمانا بكمال عدل الله وحكمته فيما شرع ويكون أقدر علي بيان ذلك لغيره من الناس ، ومن ذلك جعل قوامة الأسرة بيد الرجل لا المرأة – ، فلم يكن ذلك محاباة لجنس الرجال ولا حيفا علي جنس النساء – كيف والله خالق الذكر والأنثى جميعا وهو ربهما جميعا ؟!.

يقول الدكتور / يوسف مراد : " كثير من البحوث التي استخدم فيها مقاييس التقدير الذاتي للشخصية والتي طبقت علي مجموعة من الذكور والإناث الكبار بينت أن هناك فروقا بين الجنسين في النواحي الانفعالية – ومما يمثل هذه الدراسات بحث للتقدير الذاتي بمقاييس " برنوويتر " وكان من نتائج تطبيقه أنه تبين أن الرجال بالتأكيد أكثر ثباتا من النساء وإنهم أقل ثقة في أنفسهم من النساء " [1] .

رابعا : إنه يعين الداعية علي فهم نفسية من يدعوه من الأفراد أو الجماعات ، ودراسة اهتماماتهم وما يؤثر في نفوسهم ليخاطبهم علي قدر عقولهم ويعطيهم بقدر مايقبلون ويطيقون دون أن ينفرهم أو يثقل عليهم ، أو يجلب لهم الملل والسآمة .[2]

وهنا نذكر الوصية النبوية " يسروا ولاتعسروا ، وبشروا ولاتنفروا " [3] وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يذكر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن لو وددت أنك ذكرتنا كل يوم : قال : " أما إنه يمنعني من ذلك أن أملكم وإني أتخولكم بالموعظة ، كما كان رسول الله – صلي الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا " [4]

المطلب الثاني : مدي علاقة علم النفس بالدعوة :

إن علم النفس – كما قلنا – له علاقة وثيقة بالدعوة الإسلامية وذلك لما يلي :

أولا : إن موضوع علم النفس وموضوع الدعوة واحد وهو :الإنسان : أي أنهما يبحثان فيما يفيد الإنسان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل سواء كان لوحده أو جماعه منتجا أو مستهلكا ، مدنيا أو قرويا ، متعلما أو أميا ، صحيحا أو مريضا مرضا جسمانيا أو خلقيا .

ثانيا : إن دراسة علم النفس والإلمام بها يعين علي فهم نفسيات الناس وكيفية التعامل معهم وأحوج الناس إلي ذلك الداعية ، لأنه مأمور أن يخاطب الناس علي قدر عقولهم وأن يحدثهم

---

(١) ميادين علم النفس ٦٠٦/٢ ، ٦٠٧ .

(٢) د/ يوسف القرضاوي – ثقافة الداعية ص ١٠٧ .

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما بسنديهما عن أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري ومسلم والترمذي وقال عنه : حديث حسن صحيح .

بما يفهمونه ويعرفونه .

ثالثا: إن لهذا العلم وغيره من العلوم الإنسانية في كثير من الأحيان رشحات ضارة علي الثقافة المعاصرة وسموما تنفثها في شتي المجالات ، لايكاد يسلم منها كتاب أو مجلة أو صحيفة أو إذاعة أو غيرها ، ومن لم يعرف مصادر هذه الرشحات وتلك السموم لم يستطع أن يقاومها ، بل من الممكن أن تتسلل إلي نفسه وتؤثر في عقله وقلبه ولسانه وهو لايشعر وبخاصة وأن للقائمين عليها أساليب براقة وألفاظا رنانة .

ومن ثم فإن الداعية مطالب بأن يكون علي بينة من هذا العلم ، فاهما لإيجابياته وسلبياته ، والضار منها والنافع ، حتي يستطيع مواجهة من تعلموه وأصبح جزءا من تكوينهم النفسي والفكري ، ولهذا قيل : عرفت الشر لا للشر ،لكن لتوقيه ، ويحضرني كلام طيب للدكتور / يوسف القرضاوي – في هذا الموضوع ينبه فيه عن أشياء لايمكن تجاهلها وبخاصة من الدعاة فيقول: " وأود أن أنبه هنا – أي في مجال العلوم الإنسانية إلي جملة أشياء:

١ــ إن هذا اللون من العلوم – مهما قيل – يخضع لكثير من التفسيرات ، تبعا للمدارس المختلفة وتبعا لتفكير الدراس ، وثقافته واتجاهه .

٢ــ إنها بناء علي ذلك – تتسرب إليها اسرائيليات حديثة – كما تسربت إلي كتبنا من قبل الاسرائيليات القديمة – اسرائيليات مثل فرويد في علم النفس ، ودور كايم في علم الاجتماع، وماركس في علم الاقتصاد .

٣ــ أن للذاتية فيها مجالا رحبا للاستنتاج الظني ، وميدانا فسيحا لأن موضوعها ليس المادة الجامدة بل الإنسان المتحرك المتغير ، ولذا تنقض اليوم ما أبرمته بالأمس ، وتنقض في الغد ما تبرمه اليوم ، وتهدم مدرسة منها ما تبنيه أخري وينفي فيلسوف أو عالم ما يبالغ غيره في إثباته وتأكيده .

٤ــ إن طريقة العرض والسياق للمادة العلمية ولو كانت سليمة ولا غبار عليها – تتأثر بعقيدة صاحبها وفكره وثقافته ، وتؤثر بالتالي في قارئها ، وهذا واقع في عرض العلوم البحتة ذاتها كالفيزياء والأحياء وغيرها ، فالمادي يقول : خلقت الطبيعة والمؤمن يقول خلق الله ، هذا في العلوم التجريبية المحضة فكيف بالعلوم الإنسانية وهي كما تري ؟!

٥ــ لهذا كله أقول : إن المهم ، بل من الضروري : أن نقدم هذه العلوم لطلاب الدعوة بأقلام إسلامية مأمونة لا يخشي من تأثير الغزو الفكري والإسرائيليات الحديثة علي عقولها ، ولهذا يشترط فيمن يقدم هذه الدراسات :

أ ـــ أن يكون متخصصا فيما يكتب ، غير دخيل علي الموضوع ، ولا مقتحم ماليس له ، وقد قال الله تعالي : " وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ "[1] .

ب ـــ أن يكون متسلحاً بثقافة إسلامية ناضجة ، غير مبتسرة ولا سطحية ، حتي يتمكن من عرض موضوعه في ضوء منطلقات إسلامية صحيحة منبثقة من عقيدة الإسلام ونظرته إلي الدين والحياة ، وإلي الله والكون ، وإلي الإنسان والتاريخ .

ج ـــ أن يكون وراء هذه الثقافة ، وذاك التخصص ، روح إسلامية حية ، وضمير إسلامي يقظ ، وإن شئت قلت التزام بالإسلام وإيمان بأنه أمثل فلسفة للحياة وأعدل نظام للمجتمع[2] .

وأقول إن أكثر الناس فهما للإسلام هم أهل التخصص وهم الدعاة إلي الله عز وجل ، لذا لا بد لهم من دراسة هذه العلوم – أي العلوم الإنسانية – وبخاصة علم النفس ، ذلك لأنه علم يدرس عقلية الإنسان وتصرفاته السلوكية والنفسية – كما ذكرنا – من طفولته إلي شيخوخته ، أثناء يقظته ومنامه ، جده وهزله ، لهوه ولعبه ، في حله وترحاله ، وفي جميع أوقاته ، ومن ثم فإنني سوف أتحدث في الفصل التالي عن الداعية ومدي حاجته إلي دراسة علم النفس...

---

(١) من سورة فاطر آية : ١٤ .

(٢) ثقافة الداعية ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

المبحث الثالث
الداعية بين الدعوة وعلم النفس

قول الأستاذ البهي الخولي : الداعية طبيب اجتماعي يعالج أمراض النفوس ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة ، فهو ناقد بصير ، يقف حياته علي الإصلاح إلي ماشاء الله[1] .

ويقول أيضا في موضع آخر : " وتكون مهمة الواعظ أشبه بالطبيب الذي يقوم علي رعاية الجسم السليم بالوقاية ويأخذ بالحكمة الطبية المعروفة " الوقاية خير من العلاج"[2].

ومن ثم فإن الدعاة إلي الله عز وجل هم – حقا – حكماء النفوس الذين علموا أمراضها ودسائسها ورعونتها ، وعلموا أسباب تلك الأمراض وموجباتها ، وعلموا طرق دوائها ، كل نفس بحسب حالها ، وبخاصة أنهم يواجهون الجمهور وجها لوجه ، وفي هذا من الصعوبة والمشقة ما يجدونه من مستمعيهم ، لذا ينبغي علي الداعية أن يكون دارسا لنفسياتهم قبل إلقاء موعظته وذلك من خلال تفرس تقاطيع وجوهم ، فإنه سوف يستفيد من ذلك الشيء الكثير يقول (سيريل بيرت) .

" إن المشتغلين بدراسة الوجوه يستنتجون الشيء الكثير من شكل تقاطيع الوجه ، ولكن إلي أي حد يستطيع علماء النفس الاعتماد علي هذا النوع من الملاحظة ؟

من المحتمل أنهم يعتبرون شكل الوجه جزءا من التكوين الجسمي العام للإنسان ..... ثم يستطرد قائلا : من المحتمل وجود علاقة بين المزاج وشكل الوجه وتقاطيعه، إلا أن تلك العلاقة غامضة وغير مباشرة ، وفي أغلب الأحيان ضئيلة جداً ، علي حين نجد من ناحية أخري أن أسارير الوجه أو تعبيره الذي هو نتيجة تقلص العضلات قد

---

(١) تذكرة الدعاة ص ٦ دار التراث الطبعة الثامنة ١٤٠٨

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ .

يدلنا علي الشيء الكثير فإن تقاطيع وجوهنا ثابتة لحد ما ، بينما تعبيره يتغير من لحظة إلي لحظة تبعا لحالات الانتباه أو القوة أو التعب ، وتبعا للمشاعر التي تستولي علينا في كل لحظة"[1].

إذن تقاطيع الوجه تفيد الداعية إفادة كاملة في وعظه وإرشاده ، لأنه من خلالها يتعرف علي نفسيات جمهوره ، وإن كانوا مقبلين عليه ، فتكون أسارير وجوهم منبسطة ، وبناء علي ذلك فإنه يستمر في وعظه وإرشاده ، وإن كانت تقاطيع وجوههم مقضبة أو متقلصة أو متجهمة فيفهم من ذلك أنهم غير راضيين عنه ، فيلزمه عندئذ أن ينهي حديثه ويختم كلامه .

ومن هنا فإن الداعية لابد أن يدرس نفسيات جمهوره قبل إرشاده ووعظه ، ذلك لأنه ربما يصطدم من أول لقاء ، ولذلك نري الكثير من علمائنا الأفاضل أنهم يدققون علي الدعاة بأن يكونوا دارسين لنفسيات موعوظيهم ، وفاهمين لعاداتهم وتقاليدهم قبل وعظهم وإرشادهم ، لأن النفس البشرية دائما نزاعة وقابلة للتنويع والتغيير ، " قد تنحط حتي تكون شيطانا قال تعالي: "شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا[2].

وقد ترتقي حتي تكون ملائكية ، وهي التي لو أطلقت فسدت وأفسدت ، ولو قهرت كمنت حتي تتزكي قال تعالي : " شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا " [3] ولتزكيتها وسائل تخفي علي كثير من أهل العلم وتدق علي أكثر العباد والزهاد إلا علي متمكن من معرفة النفوس ، عالم بتهذيبها ، ومعرفة معارج رقيها ، ومدارج بعدها ، ومقادير الرياضيات التي تستعمل لها حتي يصل الطبيب إلي إزالة الداء ، وتقوية المريض حتي يصل إلي مقام كمالاته وجمالات عافيته ."[4]

وفي اعتقادي أن الطريق السوي لعلاج النفوس المريضة ، إنما يرتكز علي شخصية المعالج نفسه ، أي بأن يكون المعالج صاحب خلق كريم واسع الصدر لين الجانب ، حصيفا

---

(١) سيريل بيرت – علم النفس الديني – ترجمة سمير عبده – منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت ط / الأولي ١٩٨٥ م. ص ٣٥ .

(٢) من سورة الأنعام آية : ١١٢ .

(٣) من سورة الشمس آية : ٩ ، ١٠ .

(٤) الأمام السيد / محمد أبو العزائم – شراب الأرواح – مجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٧٨م. ص ١٢٩ .

ذكيا ، سائرا في طريق الخير ، عارفاً بطريق الحق ، عاملا عابدا لله عز وجل ، ولا يبغي من جراء ذلك إلا الحق والخير وصلاح النفس ، وطمأنية القلب ، إذ أن المعالج الذي تتطبع في نفسه الصور المشرقة الشريفة ، بدل الآفات والعيوب والنقائص ، هو أكثر الناس قدرة علي فهم نفسية الفرد ..... ومن ثم علاج آفاتها .

فالداعية يجب أن يكون إذن قبل كل شيء ، مربيا فاضلا كما سنبين فيما بعد إن شاء الله تعالي ، ذا تجربة شخصية ، ومن هنا يستطيع أن يساعد مريضه علي اكتساب الفضائل ، وذلك عن طريق مساعدته علي جهاد النفس ومخالفة أهوائها وشهواتها ، وكذلك تعويده علي المحبة بدل العدوان والكراهية ، وعلي الرضا بدل الثورة والتمرد ، وعلي الصبر بدل الرعونة والحمق والاندفاع ، وعلي التوكل بدلا من الشك والريبة ، وبالجملة إبعاده عن الآفات التي تحجب الإنسان عن التعرف علي الحقائق ، والتي إذا تسلطت علي الشخصية الإنسانية أضعفتها وفككتها وقادتها إلي الانحراف ، واندفعت بها إلي طريق الغواية والضلال ... لاينفع معها دواء ولا علاج [1] .

وعلي الداعية أن يلتزم في علاجه لمرضاه منهجا واعيا لعلاج كل حالة في إنسان علي حدة ، لأن ما يصلح لإنسان لا يصلح لآخر ، أو ما يصلح لفئة من المجتمع لايصلح لفئة أخري ، وذلك لأن النفوس مختلفة المزاج والطبائع كل له دواء يعالج به لايصلح لغيره ، فكما أن الطبيب البشري لو عالج جميع المرضي بعلاج واحد لقضي علي أكثرهم ، كذلك الداعية لو تحدث مع جمهوره بأسلوب لا يرعي فيه مقتضي حالهم ، ومواكبة حياتهم ، لأمرض قلوبهم ، وأتعب نفوسهم ، بل عليه أن ينظر في مرض كل واحد علي حدة ، ويتحري حقيقة هذا المريض من ناحية حاله ووضعه الاجتماعي والمادي ، فإن كان مبتدأ جاهلاً بأمور الشرع وحقيقة دينه ، فينبغي أن يعلمه أولاً الطهارة وكيفيتها ، ثم بعد ذلك الصلاة وأوقاتها ، وأدائها ، وغيرها من ظواهر العبادات ولايثقل عليه ، وإن كان يأكل من حرام كالربا والغش والتدليس ، أو يفعل الموبقات كالزنا وشرب الخمر ، فيأمره بترك ذلك بالتدرج معه ، فإذا استجاب وتحلي ظاهره بالعبادات ، وتطهرت عن الموبقات الظاهرة جوارحه ، نظر بقرائن الأحوال إلي باطنه ليتفطن لأخلاقه ، وأمراض قلبه ، كالحقد والحسد، فيتقدم له من العلاج ماينا سب حاله ، وهكذا النظر في جميع الأمراض التي تنتابه فيقدم له

(١) نحو علم نفس اسلامي ص ٣٠ ، ٣١ بتصرف .

الدواء المناسب ، هذا في دعوة الأفراد .

أما إذا كان الداعية يتحدث في جمع لايدري باطن حاله ، أو لا يعرف عاداتهم وعرفهم " فطريقه أن يعظ بما يشترك الناس في الحاجة إليه ، إما علي العموم وإما علي الأكثر، فإن في الشريعة أغذية وأدوية ، فالأغذية وأدوية ، للكافة والأدوية لأرباب العلل ، ومثاله ماروي أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أوصني ، قال : عليك بتقوي الله عز وجل فإنها رأس كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية وعليك بالقران فانه نور لك فى أهل الأرض وذكر لك فى أهل السماء وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان .

وقال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما :" صاحب المعروف لايقع وان وقع وجد متكئا : وقال لقمان لابنه :" يابنى لاتركن الى الدنيا ولاتشغل قلبك بها , فانك لم تخلق لها، وما خلق الله خلقا أهون عليه منها ، يابني لا تضحك من غير عجب ، ولاتمشي في غير أدب، ولا تسأل عما لايعنيك ، ولاتضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ماتركت ، يابني من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الشر يأثم ، ومن لايملك لسانه يندم .

وقال أيضاً لابنه : " يابني زاحم العلماء بركبتيك وأنصت إليهم بأذنيك ، فإن القلب يحيا بنور الحكمة ، كما تحيا الأرض الميتة بوابل السماء ، و لاتجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا، وعلي أعناق الرجال كلا ، ولا تجالس السفيه ، ولا تخالط ذا الوجهين "[1] .

هذا هو أسلوب الداعية الناجح في معالجة أمراض النفوس البشرية وعللها .

المطلب الأول : الرياضة النفسية :

إن الداعية لابد له من دراسة علم النفس وفهمه فهما جيداً ، وخاصة الأمور النفسية من حيث تهذيبها وتدريبها وذلك لأن النفس إذا تركت دونما تدريب وتأديب وتهذيب انحرفت عن جادة الطريق ، وسلكت طريق الغواية ، واندفعت إلي النقائص واغترت بشيطانها ، واستبد بها الكبر والغرور ، لذا يري بعض الأئمة أن الفساد يدخل إلي النفس من جهات ثلاثة :

(١) هداية المرشيدين ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

١ــ سقم الطبيعة : ومعناه أن تكون طبيعة الإنسان منحرفة ، غير معتدلة .

٢ــ ملازمة العادة : والمقصود هنا العادات المرزولة التي لاتتفق والقيم العليا .

٣ــ فساد الصحبة : وهو ترجمة صحيحة لغواية الشيطان والرغبة في فعل المنكرات .

ويكمن سقم الطبيعة في أكل الحرام ، كما تظهر ملازمة العادة في النظر والاستمتاع بالفواحش وفي الغيبة والنميمة .

وأما فساد الصحبة ، إنما يكون في إتباع شهوات النفس عند احتياجها ومسايرة تمني النفس وأحلامها في الملذات المحرمة .[١]

والرياضة النفسية مجاهدة للنفس ولاتتم المجاهدة إلا بالمراقبة ، والمراقبة هي أن يؤمن الإنسان أن الله تعالي مطلع عليه في كل شيء وأنه سبحانه وتعالي " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وأنه لن يصل إلي قمة المراقبة إلا بعد المحاسبة ، والمحاسبة عملية ضبط لجنوح النفس والتزام طريق الحق وحفظها من الآفات والنقائص ، وقطعها عن العادات المذمومة والشهوات المرذولة والملذات المحرمة وحملها علي مخالفة ماتهوي وما تعشق عندئذ يتخلص الإنسان من إمراضه وآفاته ، ويرجع إلي صحة النفس وسلامة القلب ، وهداية السبيل ، قال تعالي " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ " [٢]

كيف تتم الرياضة النفسية :

يقول الدكتور / حسن محمد الشرقاوي :" يري الأئمة أن الرياضة كسلوك واجب التطبيق يجب أن يسارع إليه الإنسان مجاهداً ، ويتم ذلك فيما يلي :

أ ــ رياضة الأدب :

فالأدب المقصود أدب الظاهر والباطن معا ، وتتم رياضة الأدب بمخالفة أهواء النفس وحظوظها وهذا النوع من الرياضة يسعي إلي سلب الأوصاف المذمومة كالكبر والغرور والرياء .

ب ــ رياضة الطلب :

ورياضة الطلب تتحقق بالإخلاص والصدق في مجاهدة النفس بالأوصاف المحمودة كالمحبة والشفقة والرحمة والتسامح والإيثار ، ويمثل بعض الأئمة [٣] لهذا النوع من الرياضة بعلاج الجسم ، فكما أن الجسم يعالج الفضائل وكسب الأخلاق المحمودة .[٤]

---

(١) نحو علم نفس اسلامي ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٢) من سورة العنكبوت آية : ٦٩.

(٣) كنت أود أن يوضح لنا الدكتور / الشرقاوي – هنا من هم هؤلاء الأئمة .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ويوضح لنا حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله [1] الأسلوب الواجب إتباعه في رياضة النفس فيقول : " إن كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، أن الجسم يحتاج في التربية إلي الغذاء لينمو ويكتمل ويقوي فكذلك النفس تخلق ناقصة ، ولكنها قابلة للتكامل عن طريق التربية الأخلاقية والعلم ، وإذا كان الجسم صحيحاً ، فإنه يتوجب المحافظة علي هذه الصحة بتطبيق القوانين الصحية اللازمة ، كالتطعيم ضد الأمراض الوبائية مثلا ، أما إذا كان الجسم مريضا ، فيجب أن يعالجه الطبيب ليكتسب الصحة وذلك بتقرير الدواء اللازم والعلاج الضروري له .....

والأمر كذلك بالنسبة للنفس ، فالنفس الذكية الطاهرة يلزم وقايتها من الأمراض للمحافظة علي حالها من الصحة ، وذلك بتدعيمها بمزيد من القوة لتزداد صفاء ، كما أنها إذا كانت مريضة ينبغي علاجها لجلب الصحة لها .

وإذا كان الداء المسبب لاختلال حال الجسم ، ووقوعه فريسة المرض ، لا يعالج إلا بضده ، كأن يكون بالجسم حرارة ، فيكون علاجه بالبرودة ، أو يكون به برودة فيتم علاجه بالحرارة ، فكذلك الأمر بالنسبة لأمراض النفس ، إذ أن علاجها الناجح إنما يكون بالضد ، فيعالج الجهل بالتعليم ، والبخل بالسخاء ، والكبر بالتواضع فينبغي علي الداعية أن يضع ذلك في الاعتبار .

كما ينبغي في معالجته لمرضاه أن يعرف المرض أولا ثم يضع له الدواء الناجح مراعيا قبل ذلك ظروف المريض من حيث السن والصحة والمهنة والثقافة ، وسائر ظروفه الاجتماعية ، والمعروف أن مرضي الدعاة مرضي قلوب لا أجسام ، ومن هنا فإن طريقة العلاج ليست أمرا سهلا ميسورة حيث تحتاج إلي جهاد مرير وصبر ومصابرة منهم والتحلي بفضائل الأخلاق وجميل الصفات .

المطلب الثاني : أهم الصفات النفسية التي يجب أن يتحلي بها الداعية :

إن الداعية ينبغي أن يتحلي بالصفات النفسية والآداب الدينية ليكون وارثا نبويا ، وعالما ربانيا ذا حياة طيبة نافعة ، ناشرا للفضيلة ، محاربا للرزيلة ، مهذبا للنفوس ، صالحا للتأثير في الأرواح والقلوب ، ومن أهم الصفات التي يجب أن يتحلي بها مايلي :

---

(١) الامام أبو حامد الغزالي – احياء علوم الدين – مطابع الشعب ١٤٧٧/٢ ، ١٤٨٨ .

أولا : أن يكون كبير الهمة ، عالي النفس ، يستصغر مادون النهاية من معالي الأمور ويرتفع عن الدنايا ويغضب عند الإحساس بالنقص ، ويغار لانتهاك الحرمات ليتحقق فيه مقام الوراثة ، فإنه مصلح داع إلي الله تعالي ومن كان كذلك انتقلت صفاته هذه إلي نفوس السامعين ، لأنه من المعلوم أن كل إنسان يجذبه طبعه وتحمله جبلته أثناء عمله إلي ما يميل إليه، وينطوي عليه ، ومقام الدعوة إلي الله تعالي أحوج شيء إلي ذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة فكلما كان الداعي أقوي نفسا ، واعلي همة ، كان في ذلك أمضي وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك من تأثيره في نفوس السامعين [1] .

ثانيا : أن يكون الداعية عاملا بعلمه لايكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه ، لأنه إذا كان توجيهه وأمره يخالف سلوكه وفعله ، لم يكن لقوله وتوجيهه كبير أثر لذا قيل : فعل رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل وقول بلا عمل كشجر بلا ثمر [2] .

وسئل الحسن البصري رحمه الله تعالي : مابالنا نعظ الناس فنبكيهم وأنت تعظ فتبكي ؟ فقال: ليست النائحة كالتكلي [3] .

وقال عامر بن قيس : إذا خرجت الكلمة من القلب دخلت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم يتجاوز الآذان [4] .

ومن ثم فإنه ينبغي علي الداعية أن يكون موجها مهذبا بحاله قبل مقاله ، وبفعله قبل وعظه ، وبسلوكه قبل دروسه ، فإنه بذلك يؤثر في نفوس مستمعيه تأثرا كبيراً ولله در من قال :

يأيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي ... الضني كيما يصح به وأنت سقيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ما تقول ويشتفي ... بالقول منك وينفع التعليم

وقال تعالي : " أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " [5]

---

(١) هداية المرشدين ص ١٠٨.

(٢) ماهر خليل – نظريات الغرب وحضارته في ميزان الإسلام – مجمع البحوث الإسلامية – الكتاب الثاني عام ١٩٨٦م. ص ٥٢.

(٣) هداية المرشيدين ص ١٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٩.

(٥) من سورة البقرة آية ٤٤ .

ويفهم من هذه الآية أنها تنعي كل ما يعظ غيره بالنصح والإرشاد ولا يتعظ بسوء صنيعه وأن فعل الجاهل بالشرع أو الأحمق الذي لاعقل له ، فإن أمر الغير مع حرمان النفس منه مما لايتفق مع منطق العقل ووعي الضمير ، والمراد بها حثه علي تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم بالحق فتكمل غيرها .

وروي عن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول :" يؤتي بالرجل يوم القيامة فيلقي في النار – فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحي فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر فيقول : بلي كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهي عن المنكر وآتيه .؟"[1]

وروي ابن حبان في صحيحه عن أنس رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا تعقلون "

إذن يجب أن يكون الداعية قدوة طيبة في أخلاقه وسلوكه لأنه يكسب لدعوته بسلوكه أكثر مما يكسب لها بوعظه وإرشاده ، ذلك لأن الناس ينظرون إلي الدعاة دائما علي أنهم نماذج حية ، وأئمة هداية ، ودعاة فضيلة ، ومن ثم فإنهم يتأثرون بسلوكهم الفعلي أكثر مما يتأثرون بخطبهم المؤثرة ودروسهم المثيرة ، ومحاضراتهم التي تستحوذ علي العقول والقلوب.

لذا فإننا لو رأينا عالما ضليعا ، وخطيبا مصقعا ، ومحدثا لبقا ، يعظ الناس مثلا عن التدخين وأضراره المادية والصحية والأخلاقية والاجتماعية والجنسية [2] .

وقد دعم هذه الموعظة بكل الأساليب العلمية التي تثبت وتؤكد الآثار السيئة للتدخين من جميع نواحي ماذكرنا ، واستحوذت علي مشاعرهم وأحاسيسهم ، وبينما هم معجبون ومنبهرون بهذه الموعظة التي لاقت استجابة من المستمعين يخرج هذا العالم علبة السجائر من جيبه ويشعل سيجارة علي مرأي من المستمعين ، فبالله ماذا تكون النتيجة ؟

---

(١) متفق عليه .

(٢) انظر المقال القيم في هذا الموضوع لاستأذنا الدكتور / علي محمد نصر – بمجلة أصول الدين والدعوة بأسيوط العدد العاشر عام ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م. بعنوان : القول المبين في بيان أضرار الدخان وتحريم التدخين .

أيصدق الناس ما يقوله هذا العالم ويكذبون ما يشاهدونه ؟

لاشك أن الناس سيسخرون منه ويستهزؤن به وبحديثه لأن فعله خالف قوله وسلوكه خالف وعظه وإرشاده

وليعلم الداعية أن سلوكه هو الصورة الحية الفعلية والعملية لدعوته ، لذا حث الحق تعالي الدعاة بأن يقتدوا بإمامهم رسول الله صلي الله عليه وسلم – فقال سبحانه " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا"(١).

وقيل : من لم ينفعك لحظة لاينفعك لفظه .

إن سلوك الداعية العملي يستفيد منه الناس أكثر مما يستفيدون من الكلام ، ولقد حدث ذلك مع رسول الله صلي الله عليه وسلم – عندما أمر أصحابه بعد صلح الحديبية أن ينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم فلم يقم منهم أحد ، يقول ابن القيم رحمه الله : " فلما فرغ من قضية الكتاب ، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم قوموا فانحروا ، ثم احلقوا ، فوالله ما قام منهم رجل واحد حتي قال ثلاث مرات ، ولم يقم منهم أحد ، قام فدخل علي أم سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يارسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا كلمة حتي تنحر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلق لك ، فقام فخرج ، فلما لم يكلم أحدا منهم حتي فعل ذلك نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأي الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتي يكاد بعضهم يقتل بعضا غما " (٢) .

ويفهم من هذا الموقف أن رسول الله صلي الله عليه وسلم – وهو من هو ، أمر أصحابه بالنحر ثم الحلق ، ولكن لم يمتثل أحد لهذا الأمر ، ولما أخبر أم المؤمنين أم سلمه رضي الله عنها ، أشارت عليه بالفعل بدل القول ، وبمجرد أن فعل صلي الله عليه وسلم ، ما أمر به أسرع الصحابة رضوان الله عليهم بفعل ما امتنعوا عن فعله في أول الأمر ، وهكذا نري أن الفعل يؤثر في الناس أكثر مما تؤثر الخطب البليغة والألفاظ الرنانة .

ثالثا : من أهم الصفات النفسية التي يجب أن يتحلي بها الداعية إلي الله عز وجل " الحلم وسعة الصدر " لأن الناس كثيرا ما يصدر منهم ما يغضب النفوس ويثير القلوب فإذا تحلي الداعية بهذه الصفة وتجمل بها استطاع أن يعالج أمراض النفوس ، وهو هادىء النفس ، مطمئن القلب ، لايستفزه الغضب ، ولا يستفزه الحمق ، فتنفر منه القلوب ، وتشمئز منه

(١) من سورة الأحزاب آية ٢١ .

(٢) زاد المعاد ١٣٩/٢.

النفوس ، ذلك لأن كمال العلم في الحلم ولين الكلام مفتاح القلوب ، لذا أثني الحق تبارك وتعالي علي إمام الدعاة صلوات الله وسلامه عليه بقول : فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك .[1]

والدعاة عادة يتعرضون لفئات مختلفة من الناس ، ومنهم أصحاب النفوس الكريمة، ومنهم أصحاب النفوس المريضة ، وبسعة الصدر يستطيع الدعاة أن يفهموا كيفية التفاهم مع هؤلاء وهؤلاء ، كل بقدره ومقداره ، وهذا هو المراد من الداعية الناجح حتي يستطيع أن يؤدي رسالته علي أكمل وجه وأن ينال رضا جمهوره وكسب ودهم .

رابعا : إن الداعية لابد أن يكون عفيفا ، غير متطلع إلي ما في أيدي الناس ، لأنه إذا يئس مما عند الناس استغني عنهم ، وأصبح عالما جليلا ، محبوبا مهيبا ، ينتفع به ، أما إذا تطلع إلي ما في أيدي الناس ، صار بينهم ممقوتا مرذولاً ، محتقرا غير مرغوب فيه ولافي دعوته هذا لاشك هو الفقر الذي لاغني معه ، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلا قال يارسول الله أوصني وأوجز فقال : صلي الله عليه و سلم – عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغني ، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه .[2]

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالي : " لايزال الرجل كريما علي الناس حتي يطمع في دينارهم ، فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه ، وطبق الحسن البصري البصري رحمه الله هذا الكلام علي نفسه أولا لذا كان سيد أهل البصرة : قال أعرابي لأهل البصرة من سيدكم ؟ قالو : الحسن : قال : بم سادكم ؟ قالوا احتاج الناس إلي علمه واستغني هو عن دينارهم ، فقال : ما أحسن هذا " [3]

وما أحسن قول علي بن عبد العزيز القاضي رحمه الله تعالي :

يقولون فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

أري الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سلما

وما كل برق لاح لي يتسفزني[4] ... ولاكل من لاقيت أرضاه منعما

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه العسكري والحاكم وغيرهما وصححا اسناده .

(٣) رواه العسكري والحاكم وغيرهما وصححا اسناده .

(٤) استفزه : أي استخف به وأخرجه من داره وأزعجه .

إذا قيل هذا منهل[1] قلت أري ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنها[2] عن بعض مالا يشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم ابتذل [3] في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقي به غرسا وأجنيه ذلة ... إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتي تجهما[4]

إذن لابد علي الداعية أن يعف عما في أيدي الناس وأن يكون قانعا بما قسمه الله له، قال بعض الحكماء " وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأ هم عيشا القنوع ، وأصبرهم علي الأذى الحريص إذا طمع ، واخفضهم عيشا أرفضهم للدينار ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط .

وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالي : " العالم طبيب هذه الأمة ، والمال دواؤها فإذا كان العالم يجر الداء إلي نفسه فكيف يعالج غيره ؟

والعيان أصدق شاهد علي ذلك ، فإننا نري علي قدر تعلق العلماء في الدنيا تكون زهادة الناس فيهم ، وعدم الثقة بكلامهم وبعلمهم ، لذا لايقبلون منهم نصيحة ولا يسمعون لهم حديثا .

وعلي قدر قناعة العلماء في الدنيا تكون مكانتهم في نفوس الناس والتفافهم حولهم، والاستماع لنصائحهم والانقياد لإرشادهم .

خامسا : أن يكون عمل الداعية خالصا لوجه الله عز وجل ، فلا يطلب أجرا من أحد ولايبغي جزاء ولاشكورا من أحد ، فإن الداعية إنما يكون مقبول النصيحة إذا كان خاليا من الأغراض الدنيوية ، أما إذا كان عمله لشيء من هذه الأغراض الدنيوية كطلب جاه أو شهرة أو سمعة فلا أثر لقوله في قلوب الناس ، بل يجب أن يعمل لوجه الله تعالي ، وطلبا لمرضاته وحسن مثوبته ، وللتقرب إلي الله عز وجل ، بهذه الصفة الجليلة اقتداء بإمام الدعاة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وأن يعلم أنه لايجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء إلا كما يجتمع الماء والنار .

---

(١) منهل : مورد وهو عين ماء ترده الإبل في المراعي .
(٢) نهنهه : عن الأمر فتنهنه كفه وزجره فكف .
(٣) الابتذال : ضد الصيانة والمهجة : الروح .
(٤) رجل جهم الوجه : كلح الوجه ، والجهام السحاب الذي لا ماء فيه .

يقول الشيخ / علي محفوظ رحمه الله تعالي في هذا المقام : " وجملة القول إن من قام بالدعوة إلي الله تعالي لشهوة من الشهوات النفسانية ، فذلك حظه من عمله ، وكان عند الله مذموما قال تعالي : " مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ "(١) .

أي من كان يقصد بعمله ثواب الآخرة شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا نرد ، له في ثوابه ، فنعطه بالواحد عشرة إلي سبعمائة ومن كان يقصد ثواب الدنيا ، نؤته شيئا منها ، علي ما قسمنا له ، مع حرمانه من نعيم الآخرة فالأعمال بالنيات .

وقال تعالي : " مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا" (٢) مدحورا أي مطرودا وسعيها : حظها من السعي ، وهو الإتيان بما أمر به والانتهاء عما نهي عنه ، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم واللام رمز إلي اعتبار صدق النية والاخلاص في السعي ، ومشكوراً مقبولا عنده تعالي مثابا عليه ، وقال صلي الله عليه وسلم : " من تعلم علما يبتغي به وجه الله عز وجل لايتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة : " يعني ريحها " رواه الترمذي وغيره بإسناد صحيح ، فلا يطلب الأجر إلا من الله تعالي كما قال عز وجل { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا} (٣) .

فإن المال وما في الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والمخدوم العلم إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل المخدوم خادما ، والخادم مخدوما وذلك هو الانتكاس علي أم الرأس .

يجب علينا أن نؤدي الواجب حبا في الواجب وإطاعة لخالقنا وتلبية لضمائرنا وإرضاء لوجداننا ، لا إذعانا لسلطان المادة ، ولا جريا وراء شهوة نحصل عليها أو مغنم نصيبه فإن الذين يفعلون الخير لما يرجونه من الخير تجار يبيعون اليوم ما يقبضونه غدا إنما المثل الأعلى أن يصل المرء من الرقي إلي حد أن يتلذذ من أداء الواجب ووصول الخير إلي الناس كما يتلذذ من وصول الخير إلي نفسه ، وهذا الشعور الطيب هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الحياة ، وقد حث النبي صلي الله عليه وسلم – علي هذا التخلق به علي أبلغ

(١) من سورة الشوري آية ٢٠ .

(٢) من سورة الإسراء آية : ١٨ ، ١٩ .

(٣) من سورة هود : أية : ٢٩ .

وجه وأكده حيث جعله شرطاً للإيمان [1] في قوله صلي الله عليه وسلم " لايؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه "[2] .

سادسا : التلطف في القول والرفق في المعاملة مع تحري الإقناع ، أي أن الداعية لابد أن يكون عالما بنفوس مدعويه ، ومجاريا لهم حتي يصل إلي هدفه وغايته ، وذلك لأن النفوس جبلت علي الميل إلي العظمة وحب الكرامة ، وشبت في الغالب علي الأنفة والرعونة ، ونشأت علي التقيد بالإلف والعادة ، فمن أراد صرفها عن غيها إلي رشادها ، وحاول الخروج منها عن مألوفاتها وعاداتها ، ولم يمزج مرارة الحق بحلاوة التلطف ، ولم يسهل صعوبة التكليف بالرفق واللين ، فإن دعوته لا شك مصيرها التجمد والتوقف ، لكن لابد للداعية أن يجاري الناس في عاداتهم ، ويحاول أن يتدرج معهم في تركها شيئا فشيئا ، عندئذ تقبل دعوته وتنتشر وتحضرني في هذا المقام حكاية حكاها لي أحد الزملاء أنه كان في بلد عربي ودعي هو وبعض زملائه لإلقاء محاضرات دينية ، وكان أحدهم ألقي محاضرة في ناحية من أهل اليمن وتحدث فيها عن المخدرات وموقف الإسلام منها وتناول المحاضر جميع المخدرات وكان من بينها (القات) وهو نوع من النباتات يتعاطاها جل اليمنيين وأخذ يتحدث عن هذا النوع ومدي حرمته فصاح به الحاضرون من أهل اليمن وضاقوا به ذرعا وأراد بعضهم أن يضربوه ، ولذا فإن هذا المحاضر كان يجب عليه أن يعرف عاداتهم من جهة ، ومن جهة أخري عليه أن يكون لينا في وعظه وإرشاده ، وبخاصة مع قوم لايعرفهم ولايعرف طبائعهم ونفسياتهم وصدق الله العظيم إذ قال لنبيه موسي وهارون عليهما السلام عندما أرسلهما لفرعون " فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى " [3] .

سابعا : أيضا من الصفات النفسية التي يجب أن يراعيها الداعية : أن يذكر الذي يدعوه بأحب الصفات إليه كأن يبين ماله من حسب ونسب ، وما فيه من فضل وما عليه من نعمة ليجذب قلبه إليه ، ويعده بذلك لقبول الموعظة ، وإذ لاريب أن مايكون للإنسان من شرف ورفعة مناط التحلي بالفضائل والتخلي عن النقائض ، لأن الذي يري نفسه مفضلا مكرما ، ذا شرف ومنزلة يترفع عن الدنايا والخسائس التي تدنس شرفه وتذهب بفضله ، أما الذي يري نفسه رذلا ساقطا خسيسا ، فإنه لايبالي ما يفعل ألا تري قول الله تعالي : " يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأني فضلتكم علي العالمين " وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي

---

(١) هداية المرشدين ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه .

(٣) من سورة طه آية : ٤٤ .

نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ " [1] حيث ناداهم باسم أبيهم " يعقوب عليه السلام " الذي هو أصل عزهم ومجدهم منشأ تفضيلهم ، وطلب منهم أن لاينسوا نعمته عليهم ، بشرائعه ورسله وتفضيله إياهم علي العالمين بالنبوة والملك ، ولم يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم في هذه المزية إحياء لشعور الكرامة والفضل في نفوسهم ، ثم حذرهم يوما عظيما سيقع فيه من الأهوال مالا منجاة منه إلا بتقوي الله سبحانه وتعالي في كل الأحوال ، ومراقبته تعالي في جميع الأعمال " [2] .

ولاشك أن هذا أسلوب حكيم – كما يقول المرحوم الشيخ علي محفوظ – في الدعوة ، ينبغي علي الداعية أن يبدأ بإحساس الشرف وشعور الفضل والكرامة في نفوس المخاطبين لتستعد بذلك لقبول النصيحة ، وتتغلب بهذا الإحساس وذلك الشعور علي عوامل الهوي والغواية فإن النفس إذا عرفت قدرها ومقدارها ، وسمعت ما في الرذائل من الخسة والضعة حملها ذلك الشعور – أي شعور الشرف والكرامة – علي كراهية الصفات الخسيسة والتخلي عما هو فيه من نقص ودناءة وأقبلت نفسه علي التحلي بالصفات الحميدة ، وهذا مما يساعد الداعية علي بلوغ غرضه من نفوس السامعين "[3] .

هذه هي أهم الصفات النفسية التي يجب أن يتحلي بها كل داعية حتي يتحقق لدعوته النجاح ، فإنه حقا لو تحلي بهذه الصفات كل داعية كان لا شك وارثا نبويا ، ومصلحا اجتماعيا ، وطبيبا نفسانيا ، واستطاع بأن يعالج النفوس من أدران النقائص والرذائل وأن يهبها بما أوتي من حكمة وفضل .

وإني أهيب بإخواني الدعاة في كل مكان أن يحاولوا جاهدين قدر الاستطاعة أن يتحلوا بهذه الصفات وأن يسيروا علي هديها ، حتي يتحقق فينا قول رسول الله صلي الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر "[4] .

---

(١) من سورة البقرة آية ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) هداية المرشدين ص ١٢٠.

(٣) هداية المرشدين ص ١٢١ بتصرف .

(٤) رواه البخاري .

المبحث الرابع
من أهم نظريات علم النفس الحديث "
نظرية الجنس " وموقف الإسلام منها

تمهيد :

بعد أن تحدثت عن مدي علاقة علم النفس بالدعوة الإسلامية ، وبينت أن بينهما علاقة وثيقة وهي : دراسة سلوك الإنسان ، كان لابد من إلقاء الضوء علي نظرية تعتبر من أهم النظريات التي تناولتها مدارس علم النفس الحديث وبخاصة مدرسة التحليل النفسي الذي أسسها " سيجموند فرويد اليهودي "[1] ألا وهي " نظرية الجنس " هذه النظرية قد شغلت الكثير من الباحثين والمفكرين وخصوصا الذين درسوا العلوم الإنسانية وحصلوا علي شهادات علمية من الغرب ، فأخذوا يهللون لها ويشدون بها في كل مكان كالببغاوات ، ويعتبرونها هؤلاء الحمقي من الرقي والتقدم .

وباديْ ذي بدء أود أن أوضح شيئا هو أني لا أتحدث عن هذه النظرية بشيء من الإسهاب والإطالة ، وإنما أحاول جاهداً قدر استطاعتي بيان معني كلمة " جنس " والمقصود منها عند " فرويد "وفي منطق الإسلام ، ثم بعد ذلك نناقش هذه النظرية عند فرويد وعلاجها بالتحليل النفسي مناقشة موضوعية من منهج علمي بحت ومقارنتها بما جاء في الإسلام الحنيف ، ذلك لأن هدف هذا البحث المتواضع هو بيان أن نظرية الإسلام إلي النفس الإنسانية هي النظرة التي تتسق وتنتظم مع الطبيعة البشرية .

---

(١) سيجموند فرويد طبيب من النمسا ولد عام ١٨٥٦ م بمورافيا من أبوين يهوديين واتجه بعد تعلمه الطب إلي ميدان التحليل النفسي ، راجع له حياتي والتحليل النفسي وثلاث مقالات في نظرية الجنس ترجمة د / مطصفي زيور .

المطلب الأول : معني كلمة الجنس :

يقصد بكلمة " الجنس " مفهومها المعاصر الذي يعني تلك " الطاقة الجنسية " في كيان الإنسان ، وهذه الطاقة التي تمثل دافعا فطريا ككل دافع استودعه الله كيان الإنسان ذكراً كان أم أنثي ، له وظيفته الحيوية التي تبدو في استمرار الجنس البشري علي وجه الأرض إلي حيث الوقت المقدور في علم الله ، الذي خلق فسوي ، وقدر فهدي .

والظاهرة التي تصاحب هذا الدافع الفطري يحسها كل إنسان ، هي الرغبة في طلب الإشباع أمر مشترك بين الدوافع الفطرية جميعها لدي الإنسان .

فدوافع التملك في كيان الإنسان يتحرك في أعماقه ، ويتطلع إلي الإبداع ودافع حفظ الحياة يعمل في نفس الإنسان ويبحث عن الإشباع ، وهكذا كل دافع في عالم النفس ، ذلك العالم الذي لايحيط بكنهه وأبعاده إلا خالقه جل وعلا [1] وهذه الغريزة أي غريزة الجنس تعد من أقوي وأعمق الغرائز البشرية فهي تعمل بنشاط دائب وتطالب باستجابة منتظمة .....

إنها أصيلة في الكيان البشري لحكمة سامية ، وهدف يتعلق ببقاء الحياة واستمرار الأجيال ... كما جاء في القرآن الكريم : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}[2] .

والفطرة تقتضي الاستجابة لها وتلبية ندائها وإلا أصاب الإنسان من تجاهلها التلف والشقاء ... أما الكبت والخروج عن الفطرة فإنه يصنع مشكلات شديدة التعقيد ، كشفت عنها بحوث علماء النفس في العصر الحديث ، الذين اكتشفوا صلة الكبت بكثير من العلل والاضطرابات النفسية ، وخلصوا من ذلك بنظريات عن الغريزة تبين علاقتها بنواحي النفس وأثرها في سلوك الإنسان .

نظرية الغريزة الجنسية عند فرويد :

وأشهر الذين عنوا بمشكلات الغريزة وكشفوا عن علاقتها بمظاهر النشاط البشري هو " فرويد " الذي عرف من البحوث التي أجراها علي كثير من المصابين بالعلل النفسية أن

---

(١) د/ يوسف عبد الهادي الشال – الإسلام وبناء المجتمع الفاضل – مجمع البحوث الإسلامية العدد "٦٠" ذو الحجة ١٣٩٢هـ ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) من سورة النساء آية : ١ .

كبت الشعور بالغزيرة كان عاملا قويا في حدوث هذه العلل ، وانتهي إلي أن غريزة النـــوع هي المؤثر الأول في الحياة البشرية ، وأن جوانب النشاط الإنساني تتأثر بها وتدور حولها .

وكان لنظريات " فرويد " آثارها في المجتمع الغربي ، الذي اندفع بعدها ملبيا نداء الغريزة محطما القيود الأخلاقية والضوابط الاجتماعية التي تحول دون الانطلاق [1] ذلك لأن " فرويد " وجه اهتمامه لهذه المسألة إلي درجة المبالغة والشذوذ يقـــول صـــاحب كتـــاب الإنسان بين المادية والإسلام عن فرويد :

ويصل به التعسف في تقرير نظريته إلي حد أن يصبغ كل حركة ، حتي حركـــات الطفل الرضيع ، بصبغة الجنس الحادة المجنونة ، فالطفل يرضع فيجد في رضاعته لذة جنسية ويلتصق بامه بدافع الجنس ! " الطفلة ياتري هل تحس نحو أمها بنفس الدافع ؟ " وهو يمص إبهامه بنشوة جنسية ، ويحرك أعضاءه بنفس الدافع ولنفس الغاية ! وهكذا إلي آخر الأوهام التي يقيمها بغير دليل إلا دليلا واحداً مشكوكا فيه هو حالات الشذوذ .....

والحضارة كلها ناشئة من الغزيرة الجنسية ، لا لأنها تجمع الذكر والأنثى ، فتخرج منهما نسلا ، فيتكون المجتمع ، وتتعدد ضروراته فترتقي حياته ... كلا ! فهذا كلام مفهوم معقول ، لا يحتاج في بيانه إلي عبقرية ولاشذوذ ! وإنما الذي يحتاج إلي العبقرية والشذوذ أن يقول :

إن الإنسانية الأولي قتلت أباها ، لأن الأبناء طمعوا في الاســـتيلاء علـــي أمهـــم والاستئثار بها دون أبيهم ، لأنهم يحسون نحوها بشبق الجنس ، فلما قتلـــوه وجـــدوا أنهـــم سيدخلون في معركة عنيفة لتقرير غلبة أحدهم ، واستيلائه علي أمه لذلك كبـــت الأولاد شعورهم الشهوي نحو أمهم ، ومن هذا الكبت نشأت الحضارة .

وحين قتلوا أباهم بدافع الصراع الجنسي نشأ الدين فقد أحسوا بالندم علي فعلتهم فقدسوا ذكري الوالد ، وجسموه في حيوان ، فعبدوا الحيوان ، ثم ظلت الفكرة ترتقي حتي عبدوا إلهاما ..... وذلك قبل أن تنزل الأديان [2] ولكن نزول الأديان من السماء لم يخرجها

---

(١) د/ مصطفي عبد الواحد – الاسلام والمشكلة الجنسية – مكتبة المتنبي – الطبعة الثانية ١٣٩٢هـــ . ص١١ ، ١٢ .

(٢) اعتقد أن الأستاذ / محمد قطب – يقصد بذلك مفهوم فرويد واتباعه ، وإلا من المعروف أن الدين وجد مع الإنسان الأول وهو سيدنا آدم عليه السلام ، أو يقصد محمد قطب بالأديان هنا الأديان الـــسماوية الثلاث " اليهودية والمسيحية ، والإسلام "

عن نطاق الجنس ، فقد أراد المسيح أن يقتل أباه ثم جعل نفسه إلها مكانه كما قتل الوالد أباه لياخذ مكانه مع الأم !! .

ثم يعلق الأستاذ / محمد قطب – علي هذا الاعتقاد المتدني فيقول :

علي هذا النسق من التعسف والسخف يجري " فرويد " في تفسير السلوك الإنساني كله علي ضوء الجنس ، وما يحتاج الإنسان ، ولكي يؤمن بقوة الدافع الجنسي وتعمقه أن يصل إلي كل هذا التعسف السخيف ، فما من شك في أن الحياة كلها لايمكن أن تقوم بغير المشاعر الجنسية التي تجمع بين الجنسين ، ومن تطور هذه الغريزة نشأت الأسرة بكل ما فيها، من مشاعر التعاطف والود والأمومة والأبوة ومن أجل الأولاد خرج الوالد للعمل والإنتاج ، وبدافع الصراع وحب الغلبة تحسنت وسائل الإنتاج وارتقي العلم [1]

المطلب الثاني : أهم الأسباب التي ساعدت علي انتشار نظرية فرويد وذيوعها :

لاشك أن هناك أسبابا وعوامل ساعدت علي انتشار هذه النظرية ، وهي كثيرة منها ما يلي :

١ــ يهودية فرويد :

من المعلوم لدي الباحثين والدارسين لعلم مقارنة الأديان أن اليهود يحقدون علي الأمم ، وفرويد هذا يهودي في أعماقة الداخلية ، وملحدا في ظاهره ، حيث كان يتظاهر بالإلحاد ليعطي لتفكيره روحا علمانية ولكنه علي الرغم من ذلك كان غارقا في يهوديته من قمة رأسه إلي أخمص قدميه .

وقد لاحظت في أثناء بحثي عن شخصية فرويد في الكتب والمراجع التي تتحدث عن هذه الشخصية أن صدره امتلأ حقدا علي العالم كله وأن إحساسه بيهوديته قد أنتج اللاشعوري في فلسفته كلها ، ونظرياته جميعا ، يقول الأستاذ / محمد قطب :

" ظهرت مؤلفات بالعربية والألمانية وغيرها تؤكد أن فرويد كان يصدر في كتابته عن نفس يهودية خالصة [2] ومن هذه الكتب كتاب الدكتور صبري جرجس بعنوان " التراث اليهودي الصهيوني في علم النفس ونظرية فرويد " جاء فيه :

---

(١) الأستاذ / محمد قطب – الإنسان بين المادية والاسلام – دار الشروق – الطبعة الثامنة عام ١٤٠٨هـ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٢٧ هامش .

" إن الفكر الفرويدي المنبعث أصلا من التراث اليهودي والصهيوني كان يهدف أساسا إلي تفويض الأسس التي تقوم عليها حضارة الغرب " .

بل إن الدكتور / صبري – يذهب إلي أبعد من هذا حين يقرر:

" أن التحليل النفسي الذي ابتدعه فرويد مع ظهور الحركة الصهيونية منذ سبعين سنة لم يكن علما مجرداً كما يزعم ، ولكنه وثيق الصلة في جوانبه المرضية والحضارية معا بالفكر اليهودي الصهيوني الذي ظهر في التراث منذ عهد التوراة وما بعدها ، وإنه من أجل ذلك سخرت الصهيونية اليهودية حربها الإعلانية والدعائية لنشر مفاهيمه والدعوة إليه في أوسع نطاق ، حتي أصبحت الفرويدية من أقوي العوامل أثرا في التوجيه الفكري والخلقي لعالم الغرب ، وقد كان فرويد يهوديا حقا ، عضوا عاملا فخريا في بعض المنظمات وصديقا لهرتزل " .

ومن ثم فإن " آراء فرويد الأساسية كلها استجابة لاشعورية لما يعتمل في نفسه كيهودي من حقد علي العالم كله ورغبة في الانتقام ، وهي استجابة تحايل لها عقله الباطن بطريق التبرير – كما يقول فرويد – لتتخذ مظهرا علميا بريئا لا غبار عليه من الظاهر [1]

وهذا يدل علي أن هناك تخطيطا يهوديا مدبرا لإفساد البشرية بنشر تلك الصورة المشوهة للإنسان ، وتحطيم إيمانه بالقيم العليا كلها ، ومما يدل علي ذلك دلالة واضحة ما جاء في كتاب " بروتوكولات حكماء صهيون " الذي يرسم السياسة اليهودية العالمية ما نصه:

" يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لايبقي في نظر الشباب شيء مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار الأخلاق [2] .

ويقول الدكتور مالك بدري :

" إما فرويد الفاسق فما هو إلا يهودي ، قد أملي عليه كرهه للدين المسيحي أن يطلق الجنس من عقاله عاصفة هو جاء تدمر كل القيم الدينية والأفكار الإنسانية النبيلة "[3]

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢) انظر بروتوكلات حكماء صهيون – ترجمة محمد خليفة التونسي – مكتبة دار التراث بالقاهرة .

(٣) مجلة المجتمع الكويتي عدد ٢٠٩ / ٢٧ .

ويقول أيضا :-

" أتهم فرويد بأنه لم يستنبط نظرياته التحليلية النفسية من علاج مرضاه وتحليل أحلامهم ودراسة انطلاقاتهم وأقوالهم الحرة كما يدعي ، بل إنه قد صاغ نظرياته ، وربما بطريقة مقصودة من دراساته التقليدية للتلمود " (١)

وكذلك يقول الاستاذ مصطفي فوزي غزال :

" وقد أجمع الباحثون أن ليهوديته – أي فرويد – دخلا كبيرا في صياغة الكثير من نظرياته وفرضياته وتعليقاته " (٢)

ومما يزيد الأمر وضوحا أن اليهود لما وجدوا في فكرة ونظرياته وبخاصة نظرية الجنس – خدمة لهم " قدموا فكرة للإنسانية باستخدام مختلف الوسائل الإعلامية بغية نشر الرزيلة والفساد وتسهيل ذلك علي ضمائر البشرية ليسهل لهم قيادة هذا الرعاع من الشعوب اللاهثة وراء الجنس المتحللة من كل القيود والقيم " (٣)

٢ــ الفكر الدارويني الذي أرجع الإنسان إلي أصول حيوانية مادية (٤)

٣ــ الاتجاه العقلاني الذي ساد أوربا حينذاك (٥)

٤ــ النظرة المسيحية إلي الزواج :

لا إن المسيحية – أي مسيحية بولس – تري أن الزواج أمر غير مرغوب فيه يقول بولس :-

وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها فحسن للرجل أن لايمس امرأة ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته ..... ولكن أقول هذا علي سبيل الإذن لا علي سبيل الأمر ، لأني أريد أن يكون الناس كما أنا ، ولكن أقول للمتزوجين وللأرامل إنه يحسن لهم إذا لبثوا كما أنا .... إذا من تزوج فحسنا يفعل ومن لا يتزوج يفعل أحسن .(٦)

ومن ثم فإن السلوك الأمثل لديهم هو الرهبانية والعزوف عن حياة الأسرة ، ذلك لأن المرأة في نظر الدين المسيحي شيطان يقوده إلي الخسران ، ولذلك " فإن الصبي الذي

---

(١) مجلة المجتمع عدد ٢١/٢١١ .

(٢) أفوال شمس الحضارة الغربية من نافذة الاباحية – دار السلام للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولي ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م. ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصره – الندوة العالمية للشباب الاسلامي – الرياض – الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م. ص ٣٨٤.

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤.

(٥) المرجع السابق ص ٣٨٤.

(٦) رسالة بولس الأولي إلي أهل كورنثوس اصحاح : ٧ الفقرة ١ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٣٨ .

ينشأ في جو العقيدة المسيحية ينشأ وفي نفسه عقد تستنكر الجنس وتستقذره ، وذلك من وحي الإشعاعات الدينية التي يلقيها إليه رجال الدين والكتب المقدسة ، ويتلقاها من أبيه ومن مدرسه ، ومن كتب النصائح والتحذيرات ، فإذا كبر هذا الصبي ، ووصل إلي سن المراهقة فالبلوغ " فهناك الأزمة العنيفة التي يصطدم بها علي غير انتظار ، هناك الدفعة الجارفة التي تنادي به آناء الليل وأطراف النهار ، أن أقبل واستجب ، واستمتع بتلك اللذة العارمة التي تنبت في أطواء جسدك ، وفي الجانب الآخر ذلك السيف المصلت ، أو ذلك السوط المرتفع في الفضاء يهدد تهديداً لاينقطع ، ويكاد يهوي علي ظهر ذلك المراهق المسكين ، بل هو يهودي عليه فعلا بين الحين والحين ، تمسكه يد خفية لاتبين ، يتخيل أنها يد الله ، أو يد القسيس ، أو يد الوالد ، أو المدرس أو من صور الرادعين والزاجرين .

عند ذلك يبدأ الصراع ، ثم لا يكف أبدا .

فدفعة الجسد متجددة لاتنقطع ، وإيحاءات الدين التي تصور الجنس دنسا وقذارة ، تلك الإيحاءات التي ترسبت في نفس الفتي وهو طفل صغير ، تظل هي الآخرة متجددة لاتنقطع ، ومن هذا الصراع تنشأ كما أسلفنا العقد النفسية والاضطرابات العصبية ، التي تترك أثراً لا يمحوه بعد ذلك أن يتزوج هذا الفتي – أو الفتاة – في مقبل الأيام ، بل أثبت الطب والتحليل النفسي أن كثيراً من أسباب الشقاء الزوجي يرجع أصله إلي عقد الصبا والمراهقة ، وأن الزواج لم يحلها ، بل كبرها كما يكبر المجهر النقطة الصغيرة .

ذلك مثل من أمثلة الاضطراب الذي ينشأ من تعارض هذه التعاليم مع طبائع الأحياء " [1]

وهكذا ظل الصراع النفسي في نفوس المسيحين ، حتي تخلصوا من الدين كله ووجدوا في فكر فرويد متنفسا لهم فآمنوا به ، بل وساعدوا علي ذيوعه وانتشاره مما أدي إلي تجرد أوربا كلها من نير الكنيسة ، ومن سلطان الدين ، وأصبحت لاتؤمن إلا بالواقع المادي المحسوس .

٥ـ الفكر العلماني الذي صبغ الحياة بثورته ضد الكنيسة أولا وضد المفاهيم الدينية ثانيا [2]

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٨٤ .

٦ــ الحرب العالمية الأولي :

حيث " جند ملايين من الشباب في كل مكان في أوربا وأمريكا ، وعاشوا في الخنادق سنين عددا يتهددهم الموت بالغازات السامة ، وبالقنابل المدمرة ، وبحرب الميكروبات ، وحرب الأعصاب ، وكل مزعجة من المزعجات ، فما أن أوشكت الحرب علي نهايتها حتي انطلق أولئك المكبوتون المحتجزون في الخنادق والمعتقلات ، انطلقوا كالغيلان الجائعة تبحث عن الغذاء : غذاء الجسد الظامىء بطبيعة الحال ، لا غذاء العقل والروح .

وكان ملايين من الشباب قد قتلوا في الحرب ، فاضطراب المرأة أن تخرج إلي المصنع وإلي الطريق بحثا عن الرزق لأن عائلها قد قتل ، أو لأنه استنكف أن ينفق عليها وهو خارج من الأزمة العظمي يريد الترفيه عن نفسه ، ولا يطيق أن تفرض عليه القيود ، ولو كانت لأقرب الأقربين ، ووقعت المرأة فريسة سهلة للجوع من كل نوع : جوع المعدة ، وجوع المظاهر التي تحرص المرأة عليها من ثياب وزينة ، وجوع الغريزة ، فقد زاد عددهن علي عدد الشبان بعد أن قتل منهم من قتل ، فاستحال أن تجد كل فتاة زوجا ، ولو تزوج جميع من بقي حيا من الرجال .

وكانت فرصة ذهبية لإطاعة تعاليم فرويد ، وما كانوا في حاجة إلي من يدعوهم إلي الأنطلاق الحيواني ، فقد كانت ظروفهم كلها تغريهم بالانطلاق ، ولكنهم وجدوا في فرويد سندا ضخما لتزواتهم الجسدية الهائجة ، فبدلا من أن يظهروا أمام المجتمع مجرمين خلقيين ، صار لهم من نظريات " فرويد " ما يسمح لهم أن يقولوا : إنما نحن نطيع هاتف " العلم " وهو أولي بالاتباع من أساطير الأولين !

ومن ثم كانت الأجيال التي نشأت في الحرب العظمي الأولي وما بعدها تؤمن بفرويد إيمانا أعمي ، وتعتبره بطلا من أبطال التاريخ .[1]

وهذه هي الأسباب التي أدت إلي انتشار نظرية فرويد في المجتمع الأوربي وساعدت علي ذيوعها .

(١) الإنسان بين المادية والإسلام ص ٤٤ ، ٤٥ .

نتائج نظرية " فرويد " :-

بعد ما وضحت الأسباب التي أدت إلي ذيوع هذه النظرية ، كان لابد لنا من الحديث عن نتائجها في المجتمعات التي طبقت فيها عمليا ، ليتضح للقاريء الكريم مدي سلبياتها ومضارها للإنسانية ، وهي نتائج كثيرة منها :

أولا : انتشار الأمراض المستعصية :

لاشك أن انتشار الإباحية في أوربا وأمريكا قد أدي إلي انتشار أمراض مستعصية عجز الأطباء عن علاجها وبخاصة المرض الخطير " الإيدز " ولا ريب أن هذا المرض وغيره فتك بالمجتمع الأوربي والأمريكي وبخاصة الشباب " فلم تعد عندهم القدرة علي العمل المنتج ولا الدفاع عن الأوطان والقيام بالتدريب علي القتال وحمل السلاح .[1]

ولما انتشرت هذه الأمراض في أوربا نشروها بالتالي هم في الدول التي استعمروها ، وفي أي مكان حلوا فيه ، كانوا عن طريق السياحة أو التجارة أو غير ذلك .

فمن البلاد التي نقلوا إليها هذه الأمراض " زمبابوي الأفريقية " حيث أجري قسم الصيدلة بجامعة زمبابوي مسحاً قوميا (دل هذا الإحصاء علي أن نصف البالغات في زمبابوي و ٢٠ % من إجمالي عدد السكان البالغ ٧,٥ مليون نسمة كانوا يعانون من أمراض تناسلية، وأن الموقف يزداد سوءا ، وأشار الإحصاء أنه في إحدي ضواحي هراري ذات الكثافة السكانية العالية فإن ٩٩,٩ % من البالغين ضحايا الأمراض التناسلية .

هذه هي الحضارة التي نقلها الأوربيون إلي شعب زمبابوي الذي استعمروه طويلا ، فهل يدرك أدعياء التقدم مفاسد هذه الحضارة المزيفة ؟ [2]

ثم إن هذه الأمراض التناسلية تكاد تكون أكثر الأمراض انتشارا في البلاد المتحضرة، وهي نتيجة حتمية للانفتاح الجنسي كفرنسا وأمريكا .

ثانيا : أحجام الأوربي عن الزواج :

ومن نتائج نظرية فرويد الجنسية احجام الشباب عن الزواج ، توضح ذلك مجلة اليمامة السعودية فتقول : فمنذ بداية السبعينات طغت في مختلف دول الغرب ظاهرة تلكؤ الشباب عن الزواج ، فساد الاعتقاد آنذاك أن هؤلاء يؤخرون هذا الموعد المحترم كي يتهيئوا تماما لتأسيس عائلات جديدة ، لكن الثمانينات أتت لتخيب ظن الخبراء إذ تبين أن عدد رافضي الزواج آخذ في الارتفاع بشكل مقلق ، ففي فرنسا مثلا التي تقع في وسط

(١) أقوال شمس الحضارة الغربية من نافذة الإباحية ص ٦ .

(٢) مجلة المجتمع الكويتية ٤ ربيع الآخر ١٤٠٣ ص ٣١ .

الاحصائيات الغربية بحيث يمكن اعتمادها مؤشرا ، انخفض عدد الزيجات بين السبعينات وبداية الثمانينات بمعدل يراوح بين مائة ألف و ١١٦ ألفا ، في حين أن نسبة الأشخاص الذين لا يتزوجون بقيت في هذا البلد منذ نحو مائتي سنة تعادل ١٠% للنساء و١٤% للرجال ، صارت اليوم ٣٦% مما يعني أن هذه النسبة من الفرنسيين لن تتزوج أبدا ولن تؤسس عائلة .

وانخفاض عدد الزيجات بالمؤشرات الحالية هو الخطر الأكبر الذي يشهده تاريخ فرنسا ، ففي عام ١٩٨١ /. تم إحصاء ٣١٥ ألف عقد قران ، في حين كان هذا العدد أكثر من ٤١٧ ألفا عام ١٩٧٢م. ويفسر علماء الاجتماع هذه الظاهرة بعدة عوامل أهمها الأزمة الاقتصادية التي تظل الشباب في سن الزواج بشكل خاص . [١]

وبسبب إحجام الشباب عن الزواج تناقص عد السكان ، ومن أجل ذلك لجأت الدول ومنها ألمانيا – كما تقول جريدة الرياض – إلي تشجيع الزانيات علي إنجاب الأطفال غير الشرعيين ، وذلك رغبة في زيادة السكان الذي أصبح الشغل الشاغل للدولة .[٢]

ثالثا : التسكع والتشرد في الشوارع :

يقول الأستاذ مصطفي غزال :

" أكثر الناس يظنون أن جنة الله في أوربا وأمريكا حيث البلاد الرغيدة التي لايوجد فيها إنسان تعيس ولامشرد ولابائس ، وكل في غبطة وسرور ، همهم الوحيد التمتع بمباهج الحياة والتنزه في حدائقها وبساتينها ، ولو نظر إلي واقع الأمر لوجد فيها البؤس والشقاء والحرمان ، وهذا الوجه الآخر الذي يراه الزائر إلي تلك البلاد ، والتقارير التي تنشر تدل علي وجود هذا الشيء [٣] ونسوق علي سبيل المثال ما ذكر في مجلة المجتمع إذ تقول :

" آخر التقارير حول الوجه الآخر لأمريكا تقول بأن في أمريكا اليوم أكثر من مليوني متسكع لابيت لهم ولا مهنة ولا عائلة [٤]

ومع الزمن أصبح عدد المتسكعين كبيرا ومزعجا لاتدري الدولة كيف تعمل بهم .[٥]

(١) مجلة اليمامة السعودية عدد ٧٩٣ص ٤٨ .

(٢) جريدة الرياض السعودية عدد ٥٧٥٣ ص ٢٧ .

(٣) أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الاباحية ص ٤٦ .

(٤) مجلة المجتمع عدد ٦٢٧ ص ٣١ .

(٥) المجتمع عدد ٦٠٢ ص ٣٥ .

رابعاً : إدمان المخدرات :

يقول الدكتور " باري رامر " مدير دائرة الصحة في سان فرانسسكو :

" إن الاحصائيات لديه تدل علي أنه من بين ٥٠٠ فتاة تحت سن ٢٣ اللاتي يعالجن من الإدمان وجد أن جميعهن تقريبا من محترفات الدعارة المراهقات [١]

خامساً : كثرة اللقطاء :

ونتيجة حتمية أيضا للاباحية كثرة اللقطاء بشكل مرعب :

نشرت جريدة " ديلي أوكلاهومن " نقلا عن وكالة واشنطن ستار مقالا يستعرض الاحصائيات للولايات المتحدة لعام ١٩٧٧م. ، وهذه بعض الحقائق التي وردت في تلك الاحصائية :

سنة ١٩٦٥م. بلغت الإحصائية الحكومية لولادة غير المتزوجات "٢٩١,٠٠٠ " حالة ولادة ، بنسبة ٧,٧% لحالات الولادة عموما بعد عشر سنوات فقط ارتفع الرقم إلي ٤٤٧,٩٠٠ بنسبة ١٤,٢ ، ٥٨ % من هذه الحالات كانت لأمهات سود ، ١١ ألف طفل ولدوا لأمهات غير متزوجات أعمارهن ١٥ سنة أي ضعف الرقم في العشر سنوات الماضية [٢]

كما حصل في أمريكا حصل في السويد ، ففيها انخفاض مستمر في نسبة المتزوجات إلي غير المتزوجات ، ارتفاع مستمر في عدد المواليد غير الشرعيين مع ملاحظة أن ٢٠ % من البالغين من الشباب لا يتزوجون أبدا ، وان نسبة الطلاق في السويد أكبر نسبة في العالم[٣] وهذه نتيجة حتمية للإباحية والانحلال ، فلم يتزوج الفتي طالما يجد كل شيء تحت يده ؟

هل مقصودهم من الحياة إلا إشباع شهواتهم ونزواتهم ؟ وذلك أن المرأة سهلة التناول وبسعر زهيد أمارة بالسوء .... إلي جانب ذلك علماء الاجتماع وعلماء النفس والأقلام والصحف والمجلات تدفع الشباب إلي الانغماس في الفاحشة ، لا أخلاق .. لا قيم .. ولارقيب .

وفي ألمانيا البلد التي كانت تحافظ علي سلوكها وقيمتها وأخلاقها أصبح فيها جيش من اللقطاء كما تشير إلي ذلك مجلة المجتمع حيث تقول :

---

(١) أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الاباحية ص ٥٦ .

(٢) المجتمع ٣٩٠ /٤٧ .

(٣) المجتمع ٣٧٨ / ٣٩ .

" ماذا يضير بلدا متحررا كألمانيا الاتحادية أن يولد فيه ٣٨ ألف طفل غير شـــرعي من أصل (٥٤٧) ألف طفل وليد أملاني عام ١٩٧٣م. فقط ، أي بمعدل سبعة أطفال من كل مائة طفل [١]

المطلب الثالث : الغريزة الجنسية وموقف الإسلام منها :

ولكن لا يعنينا هنا أمر نظريات " فرويد " – كما قلنا – وتأثر المجتمع الغربي بها ، إلا من جهة أن هذه الموجة المنفلتة من الضوابط والآداب ، قد سرت إلي الشرق الإسلامي بتأثير التبعية الفكرية والمحاكاة السلوكية .

وما كان لهذه النظريات أو سواها ، من اتجاهات الغرب نحو مشكلة الغريـــزة أن تحتل مكانا ، ولو ضئيلا في الفكر الإسلامي المعاصر ، فإنها نظريات نبعت من مجتمع مخـــالف الغربي قد عاني من مشكلة الكبت أو ظهرت فيه العلل النفسية تجاه الغريزة ، فإن المجتمـــع الإسلامي في تاريخه الطويل لم يعرف الكبت ولم يؤثر عنه مصادمة دوافع الحياة ، ولم تظهر فيه مشكلات نحو الغريزة في يوم من الأيام ، ذلك لأن النظرة الإسلامية تجاه الغريزة تختلف عن النظرة الغربية اختلافا تاما .

فالإسلام يري في الغرائز البشرية جميعا ، ومنها غريزة النوع أمرا طبيعيا جعله الله سبحانه وتعالي في الإنسان لحكمة سامية تتصل باستمرار الحياة وبقاء الأجيال [٢]

والقرآن الكريم يتحدث عن غريزة الجنس علي أنها نزوع فطري لا ذنب للإنسان في الشعور به ، فهو اتجاه مركب في الطبيعة البشرية لا يد للناس في وجوده قال تعالي :" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْـــلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [٣]

فهذه غرائز فطرية يجد الإنسان نفسه مدفوعا إلي الرغبة فيما تتعلق به :

غريزة النوع المتمثلة في الرغبة في المرأة ، وغريزة النسل التي تعبر عن رغبة الإنسان في البقاء وحب الخلود ، وغريزة الملك أو التملك [٤]

---

(١) المجتمع ٢٨١/ ٣٧ .

(٢) الإسلام والمشكلة الجنسية : ص١٣ ، ١٤ .

(٣) من سورة آل عمران آية : ١٤ .

(٤) انظر – البهي الخولي – آدم عليه السلام – مكتبة وهبه – الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ من ص ١٦٨– ١٧٥.

فلا يلام الإنسان علي شعوره بالرغبة في شيء منها أو إحساسه بالسعي لتحقيق نزوعه نحوها ، مادام استجاب لشرع الله عز وجل وقوانينه ، فهاهو آدم عليه السلام حينما آن له أن يزاول اختصاص بشريته ، وأن يتحول إلي أفق غرائزه كان أول غريزة نودي إليها " غريزة الزواج " قال تعالي :

" وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا " (١)

يقول الأستاذ البهي الخولي :

" وعلماء النفس يتكلمون عن " الغريزة الجنسية " وعن " غريزة الوالدية " ولكن ماجاء به القرآن أعمق وأصدق وأشمل " فالزواج " ضرورة فطرية أعمق مما يتصور الناظر إلي الوالدية ، وشهوة الجنس ، هو نظام أزلي يلتئم به شمل كل ما نري ، ويصلح عليه وجوده ، ويخرج به ثمره ، والله سبحانه وتعالي يقول " وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ " (٢)

ثم يقول أيضا :

" لايسعنا أن نهمل الإشارة إلي سكوت علماء النفس وإغفالهم هذا الأفق الوجداني العميق واكتفائهم بما سموه " غريزة الوالدية " ، " الغريزة الجنسية " تنبه إلي ذلك لنشير إلي لون من ألوان عمق الإسلام ودقته وشموله ، إذ يحيط بآفاق هذا المعني إحاطة تلم بما يتعلق بالولد وشهوة الجنس ، وتذهب إلي ماوراء الولد والشهوة من أغوار النفس البعيدة ، حيث فطرة الله تبارك وتعالي ....

يبدو من عجائب إنسانية الإنسان أنها تنقسم زوجين : سالب وموجب ، وإن كلا من الشطرين يرنو إلي الاتصال بالآخر شوقاً لما ينفرد به من خصائص التكرمة ونفائس المثل " ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون " والزواج الكامل بين أفراد الإنسان .. علي هذا – هو ما ورعي فيه أن يكون بين إنسانية إنسان ، وإنسانية إنسانة إلي أنه اقتران ذكر بأنثي .. وأجل مافي سماء الجمال التي لا يفتأ يطالعه فيها شموس وكواكب من الفضائل والمحاسن التي لاتقدر بقدر (٣)

إذن في ظل الإسلام لا يمكن أن تنشأ عقد الكبت في نفس الإنسان – التي يقول بها فرويد وامثاله – بل إن القرآن الكريم يعلن حق الإنسان في كفاية حاجة الغريزة الفطرية

(١) من سورة الأعراف آية : ١٩.
(٢) من سورة الذاريات آية : ٤٩.
(٣) آدم عليه السلام ص ١٦٨ ، ١٧٢ بتصرف .

بطريق سوي معتدل متزن هو الزواج ، وذلك في قوله سبحانه وتعالي :" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا " (١)

فالقرآن يقرر لنا في هذه الآية الكريمة أن العلاقة بين الرجل والمراة ليست مجرد علاقة إشباع شهوة (٢) الفرج ، بل هي علاقة تكامل من أجل العمران ، وليست مجرد حاجة شهوانية – ففيما بين الرجل والمرأة تكامل في الخلق ، والعلاقة بينهما مودة وسكن ، وهي علاقة لاتنقطع بمجرد الفراغ من قضاء الحاجة الغريزية أو حتي بعد الانجاب ، بل أنهما يتآزران ويتعاونان في تربية أبنائها بكل مايطيقان من الرعاية والعناية حتي يؤثرانهم علي نفسيهما مودة ورحمة (٣)

وعلي هذا فإن النفس البشرية تجد في هذا القول الحكيم ظلالا وارفة من الأمن والطمأنينة ، والنوع المشروع الذي يقي الإنسان شرور القلق واختلال السلوك السوي .

ومن هنا نستطيع أن نقرر بجلاء ووضوح :

أنه في ظل النظرة الإسلامية لطبيعة الغريزة وموقف الإسلام منها ينتفي الكبت ويختفي الصراع النفسي الرهيب .... وليس هناك أفسح وأروح لمشاعر الإنسان من تقرير القرآن الكريم أن هذه الغريزة أصيلة في الكيان الإنساني ، لذا فليس علي الإنسان من حرج إذا شعر بإلحاح الغريزة علي نفسه ، ولا إثم عليه إذا استجاب لها عن طريق مشروع ومن ثم فإن الشاب إذا أحس في طور المراهقة بالرغبة الجنسية ، فإنه لا يحتاج – في الإسلام – أن يستعيذ بالله من هذا الإحساس المجرد ، لأن الإسلام يقرر في صراحة أن هذا أمر طبيعي لاخلاف عليه ولانكران له ....

وعلي ذلك لايحتاج أن يكبت الشعور بهذه الرغبة ، لكي يتطهر في نظر الناس ونظر نفسه .... ولايحتاج كذلك أن يشعر بالإثم من مجرد هذا الأحساس ، ومن ثم تنتفي كل

---

(١) من سورة الروم آية : ٢١ .

(٢) نلاحظ من خلال دراستنا لنظرية الجنس عند فرويد وبعض علماء الغرب أن فرويد يقصد أن الغريزة الجنسية مجرد حاجة من حاجات الإنسان التي لابد من البحث عن أي وسيلة لإشباعها مما نتج عنه ما نسمع به اليوم من عقود الزواج المعترف بها في الكنيسة الغربية من الرجل بالرجل والمرأة بالمراة ما تحرمه الأديان وتعافه النفوس .

(٣) د/ عيسي عبده ، أحمد اسماعيل يحيي – حقيقة الانسان – دار المعارف عام ١٩٨١م. – الكتاب الأول ص ١٢٥ .

الاضطرابات النفسية والعصبية التي تنشأ من الشعور بالإثم والتي تؤدي إلي الجريمة في حالات الشذوذ ، لأن في شريعة الإسلام متنفس رحيب حيث تتناول دوافع الإنسان الغريزية وتوجهها الوجهة السوية المرضية ، إذ تربط فكر المسلم وقلبه بمصدر الوجود ربطا وثيقا علي الإقناع والاقتناع والحب .

ومقتضي ذلك منطقياً أن يحرك الإنسان المسلم باختياره دوافعه في الإطار الإسلامي المرسوم ، طلبا لمرضاه الله في الدنيا وحسن المثوبة في الآخرة .

فطلب مرضاة الله من الفرد المسلم في الدنيا وانتظار الثواب في الآخرة ، كلاهما متنفس يمتص مخاطر الدافع الجنسي ، فلا يرتد إلي أعماق النفس مكبوتاً أو مشاركاً في تكوين عقدة .

ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الإشباع المشروع علي النحو الذي سنه الإسلام بالزواج ، فتساعد هذه المرحلة المنتظرة لكل فتي وفتاة علي عدم جموح الدافع الجنسي وانتظار هذه المرحلة يعلق الدافع ، وتعليق الدافع إلي وقت تحقيق الممارسة المشروعة لايسمي كبتا ، ولاينتهي إلي كبت ، مادام إشباع الدافع في الانتظار علي الزواج الرابطة المشروعة في الإسلام ، ولهذا ليمكن أن يحتاج المجتمع الإسلامي لنظريات " فرويد " في الكبت واتجاهاته في التحليل النفسي ، وتفسير الأحلام ، مما كان له صداه في المجتمع الغربي .

هذا إلي الحقيقة التاريخية للمجتمع الإسلامي في أجياله المتعاقبة تشهد بصدق النظرة الإسلامية ونجاحها في حل مشكلة الغريزة والتوفيق بين الواقع والمثال ...

ذلك لأن الاستجابة الغريزية متمثلة في الزواج كانت تقع في يسر وطواعية دون إعنات للفرد ولا إحباط لنوازعه ، إذ تعلم المسلمون من دينهم أن ينظروا إلي هذه الغريزة علي أنها تمثل رغبة مشروعة لها صداها في نفس الفرد وفي نظام المجتمع ومن هنا فلابد من كفايتها بأسلوب ميسور ، لايشقي الإنسان ولايحيره ، ولا يضطره إلي التخفي أو الصراع النفسي .

وهذا هو توجيه الإسلام الحق ، الذي كفل للإنسان كفاية حاجاته الطبيعية ، ودعا الناس إلي أن يقضوا علي الصعاب التي تقف في وجه الفطرة وتصادم ضرورات الإنسان .

وللعلم أن الإسلام عندما حرم ماحرم لايصدم الإنسان في رغباته وميوله ، ولايكبت تطلعاته وأشواقه ، وإنما يأخذ بذلك وفق قانون الخلق والحكمة [1] كما قال رب

(١) الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ص ١٠٨.

العزة " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ "(١) وقوله سبحانه وتعالي " أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ"(٢)

والخالق تبارك وتعالي لم يحرم علي عباده شيئا إلا أبدلهم منه سعة من الحلال تضمن لهم الطمأنينة والفلاح .

وهذه قاعدة مطردة في كل ما حرمه كما قال عز وجل :

" وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا "(٣)

وكذلك أحل النكاح وحرم السفاح .

وأحل البيع وحرم الربا .

ولايختلف أمر السفاح عن الربا .

ومن هنا فإن الإسلام حرم الزنا وحذر من شروره ليحفظ للإنسانية كرامتها وعزها وشرفها قال تعالي " وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا " (٤)

وقال النبي صلي الله عليه وسلم : " اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، فأما التي في الدنيا : فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر .

وأما التي في الآخرة : فيوجب السخطة وسوء الحساب والخلود في النار (٥)

وفي هذا الحديث إشارة إلي المفاسد الشنيعة التي تنبتها الخطيئة في نفس صاحبها وآثارها المنكرة في نواحي النشاط والسلوك .

فقوله " يذهب البهاء " يشير إلي حقيقة ملموسة ، وهي أن الخطيئة تحرم صاحبها من جمال الروح وصفاء النفس وطهارة القلب وتحيله إلي حيوان متبلد الإحساس مظلم البصيرة وقوله " يورث الفقر " يشير أيضا إلي أن الزاني يصرف أمواله علي الغانيات العاهرات ببذخ مع خموله وكسله عن آداء العمل والإخلاص في السعي فيؤدي ذلك كله إلي قلة يده وخراب بيته وضياع أمواله .

وقوله " ينقص العمر " فهو كناية عن إنهاك البدن وضياع الصحة ، هذا ناهيتك عن إصابته بالأمراض المستعصية التي لاعلاج لها كالمرض العصري " الإيدز "

---

(١) من سورة ق آية : ١٩ .

(٢) من سورة النجم آية : ٣٢ .

(٣) من سورة البقرة آية : ٢٧٥ .

(٤) من سورة الإسراء آية : ٣٢.

(٥) أخرجه البيهقي .

والحديث أيضا يشير كذلك إلي سوء عاقبة الزاني في الآخرة من غضب الله تعالي وسخطه ، وشدة حسابه وخلوده في نار جهنم .

هذا جزاء حق ... لأن الذين يسلكون هذا المسلك السيء إنما يتحدون النظام الذي شرعه الله لعباده ، ويتعدون حدود الله ، قال تعالي " وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ " (١) وأن الذي لايؤمن بالنظام الذي شرعه الله تعالي وميز به مجتمع المؤمنين الصالحين فإنه ينتهي به إلي نزع الإيمان من قلبه إذا أصر علي الخطيئة قال صلي الله عليه وسلم: إذا زنا الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة ، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان"(٢)

لأن الإيمان ليس بوجود الله سبحانه وتعالي فحسب ، بل بالتصديق أيضا بالمنهج الذي أقامه الله سبحانه وتعالي للحياة في جميع جوانبها ونواحيها لذا يقول النبي صلي الله عليه وسلم : " ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قوما ألهتهم الأماني حتي خرجوا من الدنيا ولاحسنة لهم ، كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل "

وقد ميز الله أهل الإيمان بضبط الغريزة وتوجيهها الوجهة الفطرية الصالحة وأشار القرآن إلي أن مسلك الفوضي إنما هو عدوان خطير يدمر المجتمع ، ويبث الوهن في أوصاله .. وذلك في قوله تعالي " وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ " (٣)

حقا .. إنهم عادون .. لايقنعون بكفاية الحاجة عن الطريق المشروع ، وهو الزواج الصحيح بمنهجه المستقيم ، بل يتجاوزون ذلك إلي بث العوج والاختلال في العلاقات فيتصورون بخيالهم المريض أن كل الأعراض مباحة لهم ، وأن ذلك أحظي لهم وأجلب للمتعة والسعادة ، وما دروا أنهم يشقون أنفسهم كما يشقون المجتمع كله وأن المجتمع البشري لايمكن أن يستقيم أمره علي فوضي الغرائز التي يتبعها انحلال النفوس واختلال الأوضاع .

ولذلك يبين المصطفي الكريم صلي الله عليه وسلم أن سلامة المجتمع المسلم وقوته وتماسكه مرهونة بابتعاده عن الفاحشة ونجاته من أوبئتها فيقول : لاتزال أمتي بخير متماسك أمرها ما لم يظهر فيهم ولد الزنا " (٤)

---

(١) من سورة الطلاق آية : ١

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي واللفظ لأبي داود .

(٣) من سورة المؤمنون آية : ٥-٧ .

(٤) أخرجه أبو يعلي .

وفي رواية " لاتزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنـــا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب " (١)

يقول الدكتو /مصطفي عبد الواحد :

" وإن أباحة المجال للغرائز الجامحة لاتكون إلا علي حساب أمن المجتمع واستقراره ، وهاهو المجتمع الغربي الذي ظهر فيه ولد الزنا ، يشقي ويزداد شـــقاء ، ففقـــدت الأســـرة روابطها ، وتخلت عن رسالتها في التربية والتوجيه .

وإن النذير الصادق في هذا الحديث الشريف ليحذر الأمة الإسلامية ، أن تتبع هذا التيار الإباحي المدمر ، ويطالبها بأن تستمسك بعري الفضيلة ، وتستقيم علي منهج الأخلاق الإسلامية ، التي تفصل بين اتجاه وأخر ... ذلك لأن فوضي الغريزة لا تزال بالمجتمع حـــتي تهدمه ركنا ركنا .

إنها تهد قواه ، وتنفي طاقاته ؟

ولن تجد في مثل هذا المجتمع ، فرداً سويا ، يعرف نفسه ، ويدرك غايته في الحياة ، فنداء المتعة ، وإغراء اللذة ، يشيع الخيانة ، ويحل عري الإيمان والاستقامة .

وأعظم خسارة تلحقها فوضي الغريزة في مجتمع ما ، تصيب الشاب أولا ، وهـــو دائما معقد ومناط الرجاء ... وعن هذا الطريق يندفع إلي الجرائم ويتنكب طريـــق الجـــد والنجاح ....

كما أن الأسرة في المجتمع الفوضوي ، تتفكك روابطها ، وتهن قواها ، فتنـــصرف عن رسالتها ، وتخفف في أداء واجبها ....

و بالجملة .. فإن فوضي الغريزة تشقي المجتمع كله .. فـــردا وأســـرة وعلاقـــات وروابط ، وعندئذ يكون عذاب الدنيا أعجل لهذا المجتمع من عذاب الآخرة " (٢)

وصدق رسول الله صلي الله عليه سلم حيث قال : فإذا فشا فيهم ولـــد الزنـــا ، فأوشك أن يعمهم الله بعذاب "

والإسلام حين شدد في عقوبة فوضي الغريزة ، إنما أراد بذلك دفع خطـــر يهـــدد الحياة بالدمار والفناء ، يقول صاحب ظلال القرآن :

---

(١) أخرجه الأمام احمد .

(٢) الإسلام والمشكلة الجنسية ص ٣٢ ، ٣٣ .

" إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لاتفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلي إقامة بيت وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة ، لاتنتهي بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة ! وأن يقيم العلاقات بين الجنسين علي أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين ، التقاء نفسين ، وقلبين وروحين ، وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك ، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لايفترقان .

ومن هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنا ، بوصفه نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني وتطيح بكل هذه الأهداف ، وترد الكائن الإنساني مسخا حيوانيا ، ولا يفرق بين أنثي وأنثي ، ولابين ذكر وذكر ، مسخا كل همه أرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة ، فإن فرق وميز فليس وراء اللذة بناء في الحياة ، وليس وراءها عاطفة حقيقة راقية ، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار ، وهذا ما يفرقها من الانفعال ، المنفرد المتقطع ، الذي يحسبه الكثيرون، عاطفة يتغنون بها ، وإنما هي انفعال حيواني يتزي بزي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان ! .

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ، وإنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها ، عن المستوي الحيواني ، ويرقيها حتي تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية .

فإما الزنا – وبخاصة البغاء – فيجرد هذا الميل الفطري من كل الرفرفات الروحية ، والأشواق العلوية ، ومن كل الآداب التي تجمعت حول الجنس في تاريخ البشرية الطويل ، ويبديه عاريا غليظا قذرا كما هو في الحيوان ، بل أشد غلظا من الحيوان ، ذلك أن كثيراً من أزواج الحيوان ، والطير تعيش متلازمة ، في حياة زوجية منظمة ، بعيدة عن الفوضي التي يسعها الزنا في بعض بيئات الإنسان "

والحق أن فوضي الغريزة تستوجب ذلك الازدراء وتلك الاحتقار ... فما من حاجة إليها بعد ما أباح الله لعباده العلاقة الطبيعية المباركة المشروعة التي تثمر ثمرتها الطيبة للفرد والأسرة والمجتمع ، ويكفي المسلم في ذلك أن يري القرآن الكريم قد جعل هذه العلاقة الطيبة نعمة من نعمه علي عباده ، وآية من آياته فقال سبحانه وتعالي :

" وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (١)

وقال تعالي " وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَـنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَات " (٢)

بل إن الإسلام ارتفع بنشاط المسلم ، في مختلف مجالاته ، إلي مستوي القربات التي يتقرب بها إلي خالقه ومولاه ويثيبه عليها ، حتي لهوه ولعبه مع زوجه أو حتي قضاء وطـره معها .

يوضح لنا النبي صلي الله عليه وسلم في حديثه ، أن لهو الرجل مع امرأته يعتبر نوعا من الحق ، ذلك لأن له غايته المحمودة ، وهدفه الذي يرجوه الإسلام ، وهو تأكيد الارتباط النفسي والروحي بين الزوجين فيقول صلي الله عليه وسلم :

" كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل ، إلا رمية بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق " (٣)

وروي أبو ذر رضي الله عنه أن ناسا من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم – يقصد فقراء المهاجرين – قالوا للنبي صلي الله عليه وسلم : يارسول الله ذهـب أهـل الدثور – أي الأغنياء – بالأجور يصلون كما نصلي ، ويصومون كما تصوم ، ويتـصدقون بفضل أموالهم .

فقال لهم النبي صلي الله عليه وسلم : أو ليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به .

إن لكم بكل تسبيحة صدقة ، وبكل تكبيرة صدقة ، وبكل تحميدة صدقة ، وبكل تهليلة صدقة ، وأمر بمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة .

قالوا يارسول الله : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

قال الرسول صلي الله عليه وسلم : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر

فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر "

---

(١) من سورة الروم آية : ٢١.

(٢) من سورة النحل آية : ٧٢ .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي .

المطلب الرابع : العلاج النفسي بين « فرويد » ..... والإسلام

بعد أن وضحت مفهوم " فرويد " ومفهوم الإسلام للغريزة الجنسية ، وتبين لنا من خلال ذلك مدي تفاهة فكر " فرويد " واعتلاله وترديه ، وعدم مسايرته لمنهج الحياة الصحيح ، ومدي منهج الإسلام وشموليته لهذه الغريزة بأسلوب يقبله العقل والمنطق وضوحا وجلاء بيان فشل هذه النظرية وسقوطها بل وتفاهتها أمام الإيمان بالله عز وجل والاستغفار له .

لقد كتب الدكتور / أحمد شوقي إبراهيم – بحثا حول هذا الموضوع جاء فيه [1]

إن فرويد يعتقد أن الأمراض النفسية ، هي نتيجة كبت لرغبات الغرائز الجنسية – كما أشرنا إلي ذلك من قبل – تلك الرغبات التي لايقرها الدين ، أولا يرضي المجتمع عنها ، أو لا يسمح العرف بها .... فيضطر صاحبها إلي أن يكتبها في عقله الباطن بشكل لا شعوري، بقصد إخفائها ، وتجاهلها ، ولكنها دائما .... بسبب مايحيط بالإنسان من شحنات عاطفية، تحاول الظهور إلي الوعي ، وتسعي دائما إلي التعبير عن نفسها في الوقت الذي يحاول فيه الإنسان كبتها وحبسها في اللاشعور .. وبين محاولة الكبت ومحاولة الظهور .. ينشأ نوع من الصراع النفسي ، يسبب مرضاً نفساً .. والمرض النفسي قد يكون بسيطا ، وقد يكون شديداً ، ويري فرويد أن علاج الأمراض النفسية هو التحليل النفسي، ومجمل التحليل النفسي أن يسترخي المرضي تماما ويساعد علي ذلك ببعض العقاقير المهدئة .. ثم يحدث بكل ما في نفسه للطبيب النفساني بصوت مسموع ، وهذا في حقيقته نوع من اعتراف صحيح من المريض للطبيب بكل الأخطاء التي ارتكبها .. وكل .. الظروف التي تأثر بها .. والتي ربما كان قد نسي بعضها ، ولكنها ترسبت في نفسه وأحدثت بها عقداً نفسية .

والهدف من التحليل النفسي هو الكشف عن الأخطاء والذنوب فيراها المريض نفسه ويشعر بها في الوعي ... هناك يحدث صلح بين النفس والضمير فيتسامح ضمير المريض .. ويكف عن لوم النفس فينزاح عن النفس عبء ثقيل ، فيستريح المريض وتتحسن حالته ..

هذا ما قاله فرويد مؤسس مدرسة العلاج بالتحليل النفسي ، وسار كثير من الأطباء من بعده زمنا طويلا ، وإذا حاولنا أن نقارن بين نظرية فرويد في علاج الأمراض النفسية بالتحليل النفسي ، وبين شفاء تلك الأمراض باتصال المريض بالله ومداومة الاستغفار

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي / العدد ٢٠٢ عام ١٩٨١م.

له سبحانه لوجدنا أن القرآن الكريم فيه شفاء للناس أكثر وأجدي مما في العلاج بالتحليل النفسي ، وذلك للأسباب التالية :

أولا : التحليل النفسي هو اعتراف من المريض بأخطائه وهمومه ومشاكله لإنسان آخر – هو الطبيب – يعلم أنه لايملك له ضرا ولانفعا .. وربما تحسب في حديثه إليه واستحي من أن يطلعه علي كل ما بنفسه من هموم أو مشاكل .. أما الاستغفار فهو إفضاء المريض بكل ما في نفسه إلي خالقه تعالي .... والمريض هنا يعلم يقينا أن الله تبارك وتعالي بيده الأمر كله ، وأنه لا ملجأ منه إلا إليه .

ثانيا : التحليل النفسي هو محاولة لأخذ الاعتراف من المريض وسحبه منه سحباً .. أما الاستغفار لله فهو طلب المغفرة من أخطاء اعترف بها ، فهو اعتراف كامل وصريح طواعية واختياراً بدون أي ضغط .. ومن أقرب أي طريق .

ثالثا : التحليل النفسي لابد وأن يكون أمام طبيب نفسي .. ولابد أن يأخذ المريض موعداً وينتظر دوره ، فالطبيب ليس حاضراً في كل وقت وغير موجود في أي لحظة يحتاج إليه المريض إذا حدثت له أزمة نفسية مفاجئة ، أما الاستغفار لله تعالي فبابه مفتوح لمن يريد .. بدون إجراءات وبدون تحديد موعد وبدون انتظار ، والله تعالي تفضل علي عباده ، فحثهم علي الاستغفار له وشجعهم علي ذلك كما في قوله تعالي :

" أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (١)

وكما في قوله تعالي :

" وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ " (٢)

رابعاً : لايزيل التحليل النفسي ما في قلب المريض من خوف من محاسبة الله تعالي له ، فلا يمنحه الطمأنينة والارتياح ... أما الاستغفار لله تعالي فهو يزيل كل قلق وخوف من محاسبة الله له .. وذلك لأن الخالق سبحانه وتعالي وعد المستغفر له بالصفح والمغفرة والرحمة ونجد ما يشير إلي ذلك في قوله تعالي :

" وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا " (٣)

---

(١) من سورة المائدة آية : ٧٤.

(٢) من سورة هود آية : ٩٠ .

(٣) من سورة النساء آية : ١١٠

وفي قوله تعالي :

" وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (١)

خامساً : ليس في وسع أي طبيب أن يعد مريضاً وعداً قاطعاً بالشفاء ، فعلاج الطبيب محاولة تنجح أو لاتنجح .

أما نتيجة الاستغفار لله تعالي فهي نتيجة حتمية .. فيها العفو والمغفرة والصفح من الله تعالي للإنسان .. مهما أسرف في الخطأ .. ومهما أوغل في طلب المعصية إذا كف عن الخطأ وأقلع عن المعصية وتقرأ قولاً كريماً يطمئن النفس البشرية ويريحها في قوله تعالي :

" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " (٢)

وفي قوله تعالي: "فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"(٣)

وإذا كان التحليل النفسي وسيلة من وسائل العلاج ، فإن الاستغفار لله وكلماته تعالي ، هي الشفاء ، وفيها الشفاء للنفس البشرية من آلامها وأمراضها .

" وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا " (٤)

سادسا : إن التحليل النفسي قد يساعد المريض في أن يكف الضمير عن محاسبة النفس عما حدث في الماضي

أما الاستغفار لله تعالي فهو أعم وأشمل فائدة وشفاء .. فهو يشفيه مما حدث منه في الماضي ، ويأخذ بيده في شدته في الحاضر ، ويرشده إلي طريق العلاج في المستقبل فهو يطمئنه ويريح قلبه في عطف وحنان كما في قوله تعالي :

" وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " (٥) فإنه يمنح الطمأنينة للنفس لإحساسها بالأنس بالله تعالي .

وقوله تعالي : " قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ (٦)

يمنح الإنسان مزيدا من القوة ، ويعطيه قسطاً أوفر من التحمل والصمود في مواجهة الشدائد .

---

(١) من سورة الأنعام آية : ٥٤ .

(٢) من سورة الزمر آية : ٥٣ .

(٣) من سورة المائدة آية : ٣٩ .

(٤) من سورة الإسراء آية : ٨٢ .

(٥) من سورة النساء آية : ٨١ .

(٦) من سورة التوبة : آية : ٥١ .

وقوله تعالي " وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ " [1] يريح النفس تماماً لأنه يزيل عنها الأعباء التي تنوء بحملها .

سابعاً : المريض بمرض نفسي يشعر بالوحدة ، فهو يحتاج للطبيب في كل وقت ، ولكن الطبيب ليس معه دائما .. أما من يتجه إلي الله تعالي بالاستغفار ، فإن القرآن الكريم يعلمه أن الله معه في كل وقت ... وفي كل مكان لايتركه لحظه .. ولاينصرف عنه مطلقاً كما في قوله تعالي :

" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا... " [2]

وإذا تفكرنا في هذه الآية نجد أنها بدأت بتقرير علم الله الشامل لكل ما في السموات والأرض .. ثم جاءت بعد ذلك بتقرير وجوده تعالي مع كل مخلوق فتشعر المخلوق الضعيف بأن الخالق تبارك وتعالي لا تشغله أمور ملكوته عن النظر إليه دائما .. والقرب منه أبدا .. وذلك يجلب للإنسان شعور الأنس والطمأنينة والسعادة والارتياح ..

ونقرأ قولا كريماً مريحاً للنفس البشرية وشافيا لآلامها ومتاعبها وأمراضها في قوله تعالي :" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ... " [3]

ونلاحظ أن الله تعالي لم يقل " إذا سألك المؤمنون عني " ... وإنما أضفي – جل وعلا – علي المستغفرين كرامة وعزة ومقاما كريما بإضافة اسمهم إليه تعالي : " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي... " فأضاف إليهم شرف عبوديتهم لله .. وما أعظمه من شرف .. كذلك لم تقل الآية " وإذا سألك عبادي فإني أسمع دعاءهم وسأجيبه " ولكن الله تعالي – وهو الكريم الجواد البر – عجل بإجابة الدعوة بمجرد طلبها فقال تعالي :

" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ "

ثامنا : المريض قد يثق بالطبيب ... ولكنها لن تكون ثقة مطلقة ذلك لأن الطبيب إنسان يخطيء ويصيب .

أما المستغفر لله فلا تملؤه الثقة المطلقة بالله تعالي فحسب .. ولكنه اليقين التام والإيمان الكامل وشتان بين ثقة مهزوزة بإنسان .. وإيمان ويقين بالله تبارك وتعالي علوا

(١) من سورة الأنسان آية : ١٢٧.

(٢) من سورة المجادلة آية : ٧ .

(٣) من سورة البقرة آية : ١٨٦ .

كبيرا، والاستغفار طريق الإيمان بالله تعالي .. والإيمان يمنح الإنسان فوائد لاتحصي ، وقد تواترت الآيات الكريمة التي تدعو إلي الاستغفار لله تعالي والإيمان به لأن الإيمان الأثر العظيم في علاج آلام النفس البشرية وأمراضها ، فالإيمان بالله تعالي يحرر الإنسان من تصوراته الدنيوية فيزول ما في قلبه من قلق ، والإيمان يجعل الإنسان يحس بأن له عند خالقه مكانة وكرامة ، وقوله تعالي :

" وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ " (١)

يشعر الإنسان بالعزة والكرامة والطمأنينة .. ويملأ نفسه – إذا أخطأت – بالأمل العريض في صفح الله وغفرانه إذا قرأ قوله تعالي :

" إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا " (٢)

وجاء العصر الحديث .. يحمل لنا الدليل علي خطأ نظرية فرويد في العلاج بالتحليل النفسي ، فأساس نظرية فرويد : أن سبب المرض النفسي ، هو كبت رغبات الغرائز الحسية بشكل لا شعوري ، إذا كان الدين لا يقرها ، أو كان المجتمع لايرضى عنها ، ولكنها تحاول الظهور إلي الوعي بين الحين والحين فيكبتها مرة أخري وبين محاولات الكبت والظهور ينشأ الصراع النفسي ... وتحدث بسببه الأمراض النفسية ، ولكننا نري اليوم الدليل علي خطأ تلك النظرية في المجتمعات الغربية، كما في الدول الاسكندنافية وأوربا الغربية وغيرها.

فالمجتمعات هناك لاترفض تلبية أي رغبة لغرائز الإنسان ، ولا يعترض العرف هناك علي ذلك .. إذن ليس هناك كبت لرغبات الغرائز الحسية .. فلو كانت نظرية فرويد صحيحة ، لانعدمت الأمراض النفسية في تلك المجتمعات ... ولكن العكس هو ماحدث تماما، فإن عدد حالات الأمراض النفسية في تلك المجتمعات في ازدياد مستمر والإقدام علي الانتحار في أعلي معدل له .

هذا فضلا عن أن أصحاب مدرسة العلاج بالتحليل النفسي ، لم يستطيعوا تفسير نجاح علاج الاكتئاب النفسي بالعقاقير الطبية ، وبالصدمات الكهربائية بدون مزاولة التحليل النفسي علي الإطلاق .

---

(١) من سورة المنافقون آية : ٨ .

(٢) من سورة الفرقان آية : ٧٠ .

من هنا نفهم أن نظرية فريد في العلاج بالتحليل النفسي لأمراض الـــنفس نظريـــة خاطئة وأساسها خاطيء ، وأن الفكر الإلحادي الذي بنيت عليه كان خاطئاً أيضاً .. وأنه من الأجدي للإنسان ألا يعتمد علي نظريات تتأرجح بين الصواب حيناً والخطأ أحيانا .. بل يتجه رأساً إلي الحق واليقين .. إلي الشفاء الأكيد ، وهو الاتجاه إلي الله تعالي والاتصال به ، والفرار إليه ، والرضا بأمره ونهيه وقضائه .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

" فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض "

وأخيراً نستغفر الله العظيم من كل ذنب زلت به القدم أو طغي به القلم ، ونرجو منه سبحانه وتعالي أن أكون قد وفقت – بهذا العمل المتواضع – في عرض الموضوع ، ومـــا أردت به من النفع العام والخاص وإضافة شيء جديد – ولو بالقدر اليسير في مجال الدعوة الإسلامية – إلي المكتبة العربية والإسلامية ...

والله من وراء القصد وهو الهادي إلي سواء السبيل

المصادر والمراجع

١ــ القرآن الكريم – جل من أنزلة .

٢ــ أدب الدنيا والدين – للماوردي – علي هامش الكشكول لبهاء الدين المعاملي .

٣ــ آدم عليه السلام – الأستاذ البهي الخولي – مكتبة وهبه – الطبعة الثالثة عام ١٣٩٤م.

٤ــ الأسس النفسية للاتجاه الديني – دكتورة سمية أحمد فهمي – الجمعية المصرية للدراسات النفسية – الكتاب السنوي الثاني ١٩٧٥م.

٥ــ أسس الدعوة وآداب الدعاة – للدكتور / السيد محمد الوكيل – الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ .

٦ــ الإسلام وبناء المجتمع الفاضل للدكتور / يوسف عبد الهادي الشال – مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ .

٧ــ الإسلام والمشكلة الجنسية للدكتور / مصطفي عبد الواحد – مكتبة المتنبي طبعة ثانية ١٣٩٢هـ .

٨ــ أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الإباحية – دار السلام – دار الشروق – الطبعة الثامنة ١٤٠٦هـ

٩ــ الإنسان بين المادية والإسلام – الأستاذ / محمد قطب – دار الشروق – الطبعة الثامنة ١٤٠٨هـ .

١٠ــ أحياء علوم الدين للغزالي – مطابع الشعب .

١١ــ الإنسان في القرآن الكريم للأستاذ عباس العقاد – دار الهلال عام ١٩٧١م.

١٢ــ بروتوكلات حكماء صهيون – ترجمة محمد خليفة التونسي – دار التراث القاهرة .

١٣ــ الإيمان والحياة للدكتور / يوسف القرضاوي .

١٤ــ تذكرة الدعاة للأستاذ البهي الخولي – دار التراث الطبعة الثامنة ١٤٠٨هـ .

١٥ــ ثقافة الداعية للدكتور / يوسف القرضاوي – مكتبة وهبه – الطبعة الثامنة ١٤٠٦هـ .

١٦ــ جريدة الرياض – السعودية عدد رقم ٥٧٥٣.

١٧ــ جريدة الأهرام بتاريخ : ١٩٩٢/١٠/١١م.

١٨ــ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ / عباس العقاد .

١٩ــ حقيقة الإنسان – دكتور / عيسي عبده واحمد إسماعيل يحيي – دار المعارف ١٩٨١م.

٢٠ــ الحقيقة والوهم في علم النفس هــ. ج أذنك ترجمة قدري حفني ود/ رؤوف نظمي.
٢١ــ زاد المعاد في هدي خير العباد – لابن القيم الجوزية .
٢٢ــ سنن أبو داود .
٢٣ــ سنن الترمذي .
٢٤ــ سنن البيهقي .
٢٥ــ شراب الأرواح فلإمام محمد ماضي أبو العزائم – مجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٧٨م.
٢٦ــ صحيح البخاري .
٢٧ــ صحيح مسلم .
٢٨ــ علم النفس التربوي للدكتور / عبد الله عبد الحي موسي – دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨١م.
٢٩ــ علم النفس التربوي للدكتور / فؤاد أبو حطب – والدكتور / أمال صادق – مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٧٦م.
٣٠ــ علم النفس الديني – سيريل بيروت ترجمة سمير عبده – منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – الطبعة الأولي سنة ١٩٨٥م.
٣١ــ العهد الجديد .
٣٢ــ المدخل إلي علوم القرآن د/ محمد أبو شهبه دار الطباعة المحمدية ١٩٧١م.
٣٣ــ مجلة كلية أصول الدين – العدد العاشر ١٤١٢هــ .
٣٤ــ مجلة الوعي الإسلامي – العدد ٢٠٢ عام ١٩٨١م.
٣٥ــ مجلة اليمامة السعودية – العدد ٧٩٣.
٣٦ــ مجلة المجتمع العدد ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٨١ ، ٣٧٨ ، ٣٠٩ ، ٦٢٧.
٣٧ــ معارج القدس في مدارج علم النفس لأبي حامد الغزالي – مكتبة الجندي .
٣٨ــ المنقذ من الضلال – لأبي حامد الغزالي – مكتبة الجندي .
٣٩ــ ميزان العمل لأبي حامد الغزالي – مكتبة الجندي .
٤٠ــ ميادين علم النفس للدكتور / يوسف مراد ، الجزء الثاني .
٤١ــ مستدرك الحاكم علي الصحيحين .
٤٢ــ مسند الأمام أحمد .

٤٣ــ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصره ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ .

٤٤ــ النظم الإسلامية والمذاهب المعاصره للدكتور/ حسن عبد الحميد عويضه – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولي ١٣٩٩هـ .

٤٥ــ نحو علم نفس إسلامي للدكتور / حسن محمد الشرقاوي – الهيئة المصرية العام للكتاب – الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

٤٦ــ نظريات الغرب وحضارته في ميزان الإسلام ، للأستاذ ماهر خليل – مجمع البحوث الإسلامية ١٩٨٦م.

٤٧ــ هداية المرشدين إلي طرق الوعظ والخطابة – للشيخ / علي محفوظ – دار الاعتصام – الطبعة التاسعة ١٣٩٩هـ .